# حب من طرف ثالث

محمد عبد الواحد



رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع
٢٥٣٠ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى
٣ - ٦٧ - ٦٠٨١ - ٩٧٧

الجمع والإخراج الفنى
«مكتبة ابن سينا»
ت : ٦٣٧٩٨٦٣ ف : ٦٣٨٠٤٨٣

مطابع ابن سينا

الكتاب : حب من طرف ثالث
المؤلف : محمد عبد الواحد
الغلاف : للفنان إلهامى عزت
الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش. م. م
٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة
٥ ش محمد شفيق . من ش وادى النيل - المهندسين
E-mail:atlas@innovations-co.com
تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٠٤٣٤٦٩
فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨

## إهداء

إلى أصدقائي الحقيقيين ،

الذين منحوني « الحريّة » ..

وتحمّلوا « تحرري » :

أشقائي ... محمود ، منال ،

مصطفى، منى ، مايسة ..

وفاروق حسنى

.. وصباح

محمد

يناير ٢٠٠٤

# مقدمة

## الطبعة الثانية

ما الذى يجعل الأشياء تكتمل؟.. نحن أم هى؟... لا أدرى.

فالأشياء لها حياتها وأناقتها ونزواتها، ورغبتها فى الولادة مكتملة، وكذلك نحن نظل طوال العمر نبحث عن شىء واحد بلغ حد الكمال لنفرح به ونتحمى.

طوال عمرى لا أرى الكمال إلا فى الأشياء - والأشخاص - المجردة، عرفت كثيراً من المشاهير ، صورتهم جميلة ، جميلة لكن بمجرد الاقتراب منها والتعامل معهم يسقط القناع عن القناع. لذلك حاولت دائماً أن تكون لى شاشتى الخاصة ، أعرض عليها الأسماء والأشخاص والمواقف بالصورة التى أحب، دون دجل أو تزييف.

تعرفت إلى مئات الشخصيات على الورق ، وفى الشوارع ، وفوق الشاشات، لكن ما كان يثبت منها فى ذاكرتى.. هو مايطعم ذاكرتى بهجة وحزناً ، ويحل مشكلاتى، وما أرى فيه مستقبلى الذى لن أعيشه، شخصيات كثيرة لم أسع أبداً للتعرف إليها رغم سهولة الطريق والطريقة نحو ذلك، شخصيات أكثر لا أعرفها ولا تعرفنى ، أفرح فقط لمجرد أنهم مروا من هنا.. من هذا البرزخ الذى أصبح مميتاً واسمه : الدنيا.

تستطيع أن تكره الناس بسهولة، لكنك لا تستطيع أن تفعل الشيء نفسه عندما تقرر حبهم بصدق، فأمامك آلاف الأسباب التى تدفعك لكراهيتهم، لكن لا أحد يعينك أبداً على الحب.

الحب فى هذه الدنيا أصبح كالعدوى ، التى ـ بدلاً من أن تنتشر ـ يهرب منها الناس، يخترعون كل يوم أمصالا للقضاء عليها ، رغم أن الحب هو الشفاء ، للعقل والخيال ، وهو سبب الكراهية والنبوغ والإشراق، لكننا فى زمن لا يعرف الأسباب، ولا يدركها، وليس لديه وقت لتأملها والحفاظ عليها وتعلمها، نسعى – فقط – نحو النتائج مهما كانت أسبابها .. عشوائية أو سامة!

لكل ذلك تعلقت طوال حياتي بأشخاص وأسماء، كمعجب أولاً، وكمريض ثانياً، أبحث عن علاج لقلبى الموجوع وروحى المنكسرة، ليست فى شارعى أشجار، ولا فى غرفتى قطعة من السماء، أبحث عن شيء أتشبث به دوما فلا أجد، أقفز وأسقط.. كما طرت أقع، حتى تعرفت على تلك الأسماء الجميلة، كتبت عنها، تنبهت دوماً إلى أننى أكتب عن نفسى، لم أشعر بأننى خدعتهم لأن أصحاب تلك الشخصيات لا يحتاجون لأن أكتب عنهم، لكنهم سيفرحون حين أكتشف نفسى فوق مرآتهم.

الشخصيات ـ وحياتهم ـ التى ستقرؤونها فى هذا الكتاب لا تحتاج إلى تقديم، لكننى أتحايل لأقدم نفسى «خلسة» فى وسطهم، لقد كتبت عن كل واحدُ واحدة منهم ما رأيت وشعرت وأحسست ،

لكن السؤال: لماذا تلك الشخصيات بالذات؟

- لأنها شكلت حياتي، ثقافتي وطموحي الموعود، ولأنها جميعاً نسيج واحد تعددت ألوانه، وتركت الألوان نفسها للسياسة والفن والتاريخ والدين ففعل كل منهم بالألوان ما فعل من انتحار سعاد حسني ، وإلى مواصلة حسن نصر الله لجهاده صبيحة مصرع ابنه بين يديه!

إنها الحياة ، وإنه الفن ..

تلك الشخصيات التي توقفت أمامها تعرف جيداً ما هي الحياة، يتركون لنا حياتهم لنتعلم منها ما هو الفن.. فن الحياة والموت.

إن الإنسان يحتاج في كل وقت الى حماية.. فما أضعفه وأتفهه إن لم يلملم قواه! وما أشرسه إن اكتشف نفسه ومواضع القوة فيها، أعتقد أن تلك الشخصيات التي ستقرءون عنها بعد قليل فشلت في معظم ما كان في حياتها ، ولم تنجح سوى في فهمها ، .. كل واحد وواحدة منهم عرف مكمن قوته، فكان طبيعيا صدق مقولة «أنت حيث تضيع نفسك».

الحب غالبا يكون بين طرفين، وأحيانا يكون من طرف واحد وهو عذاب رائع، أما حبي أنا لتلك الشخصيات فهو من «طرف ثالث» ، لأن هناك ملايين يحبون تلك الشخصيات من طرف واحد، وهناك محظوظون عاشوا ويعيشون حبا بين طرفين «هم وتلك الشخصيات»، من هنا جاء عنوان كتابي، فهو «حب» يجمع الطرفين

السابقين .. وأنا ! ، وإن كنت أسميه كتابا تجاوزاً إلا أننى أرجوه أن يكون بداية ولو متواضعة لأقدم الشكر لكل من ساعدنى عبر سنواتى الماضية المزعجة والمنزعجة، وبخاصة الذين ساعدونى ونسوا ذلك .. منهم الدكتور عمرو عبد السميع الذى أتاح لى أن أكتب أول ما كتبت فى جريدة «الحياة» اللندنية عندما كان مديراً لمكتبها فى مصر، أما الأستاذ مرسى عطا الله رئيس تحرير الأهرام المسائى ، فقد تركنى أكتب ما أريد طيلة ١٠ سنوات حفلت بالأخطاء والتعلم والدرس، والامتنان نفسه لصديقى الكاتب الفلسطينى المتميز «حافظ البرغوثى» لحبه وتشجيعه ، وتسليمه لى معظم المسئولية عن مكتب جريدة «القبس» فى القاهرة وأنا فى بداية العشرينيات من عمرى. كما لا أنكر أننى مدين باعتذار للمهندس (نجيب ساويرس) ، لأنه كان وعداً بيننا أن يكون أول كتاب لى برعياته.

أما الأصدقاء الحقيقيون الذين تحملوا إزعاجى لسنوات ونجحوا فى صنع ولو نصف بنى آدم وكاتب منّي ، فلهم كل حبى فى كل مكان، وأرجو أن تغفروا لى أى خطأ فى كتاب هو الأول لكاتب مبتدئ ،،

**محمد عبد الواحد**

**يناير ٢٠٠٤**

# الفصل الأول 1



# حسن نصر الله

## «السيد رئيس تحرير الجنوب»

الحذر،
والدبلوماسية المتقدمة فى براجماتيتها، تبدو
واضحة جدا فى كل تصرفات و«خطاب» نصر الله..
السياسى

رغم انه يتكلم على شاشة التليفزيون كثيرا ، إلا أنك تصدقه عندما يقول إن حزب الله نجح لأنه يفعل أكثر مما يتكلم، فهذا الرجل يقف خلفه أكثر من ٥٠٠ شهيد من بينهم أحد ابنائه و٣٠ ألف جريح، وانتصار هو الأول من نوعه فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى، حيث أجبر جيش الاحتلال الإسرائيلى ـ لأول مرة ـ على الخروج من أرض عربية احتلها بالقوة ، وهى جنوب لبنان.

رغم بساطته وسهولة عباراته إلا أنها شائكة وتشبه الكون فى تعقيده .. فهى تتراوح ما بين الطلقات المتسارعة عندما يتحدث عن العدو، وإلى تحرك السحاب الهادئ عندما يختار كلماته التى يصف بها موقف حزبه السياسى وعلاقاته بالآخرين، وفى كل ذلك فهو يرتدى عباءة فوق جلباب وغطاء رأس ونظارة طبية وابتسامة لا تختفى كثيرا، إلا أن السواد هو اللون الأوضح فى صورته الجميلة، لعله يقصد أن يذكرك دائما بأكثر صناعة يجيدها ، وهى صناعة الشهداء.

السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله قالها

الأعداء ينتشرون فى كل موضع قريبين .. ربما تحت الجلد!!.

بوضوح: «من السخافة أن يظن أحد أننا ما دمنا نقاتل انطلاقا من نهج عقائدى فلابد أن نواجه الدبابة بالسيف »!

إنه يقفز بك دائما إلى أبعد من النقطة التى تتصور انك تحاصره فيها، استنادا إلى أنه شيخ معمم، تطل عليك لحيته بكل وضوح.

لا أخفى إننى واقع فى هوى سطوة تلك الشخصية، وفى استفزازها لي لأنه شاب مثلى.. يكبرنى فقط بسنوات قليلة جدا .. لكن شتان بين سنواته القليلة التى غيرت مناطق فى الكون ومواقع فى التاريخ، وسنواتى- وملايين مثلى- التى لم تستطع أن تغير موضع حبة رمل ولا موقع نفس!

كلما كنت أرقبه عبر شاشات التليفزيون لا استمع كثيرا إلى ما يقوله، لكننى أتيه مع تلك الهالة الأثيرية التى تحيط به وأحاول أن أفهم، هل سببها كامن فيه أم صنعتها تلك الأنباء الساحرة التى ارتبطت به، والفرح مع كل نصر رجولى يحققه حزب الله على العدو الإسرائيلى فى جنوب لبنان؟.

لا أخفيكم أننى ظللت حتى فترة قصيرة جدا أرى حزبه - وموقعه فيه- أكبر منه، حتى عكفت على قراءة ما أتيح لي من خطبه وحواراته الصحفية، وتابعت - بروح ناقدة- كل كلماته وحواراته التى أتيحت لي مشاهدتها عبر التليفزيون - خاصة فى قناة المنار اللبنانية التابعة لحزب الله - ،فوجدته ينظرل لي فى نهاية المتابعة بابتسامته التى لا تستطيع الهروب من سخريتها، وفهمت ما يعنيه، وأظنه لا يعنيه أن يعرف إعترافى بتسرعى فى الحكم عليه.

فى البداية أنبهكم – وأنبه نفسى– إلى أنه من المهم عند ذكرك لإسم «حسن نصر الله» أن تسبقه بكلمة «السيد» وليس «الشيخ»، لأن لها دلالات فارقة عند الإخوة الشيعة، حيث أن الكلمة الثانية تعنى أن الرجل لا يتصل نسبه بآل البيت على العكس من الأولى التى تشير إلى أنه من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

من الضرورى التأكيد على أن حزب الله صنع حسن نصر الله، وما اكتسبه الحزب من تطور فى الأداء السياسى فى بداية التسعينيات إنعكس بشكل أساسى على أمينه العام الحالى، الذى يبدو صاحب خطاب سياسى خاص جدا يختلف عن كافة الخطابات السياسية والإسلامية فى المنطقة، بما فيها إيران الممول الأساسى لحزب الله منذ النشأة – نشأة الحزب– وحتى اليوم .. وجاء هذا التميز إبنا شرعيا لظروف خاصة عاشها نصر الله منذ ولادته، وعاشها الشيعة فى لبنان – خاصة فى الجنوب– فضلا عن ظروف إستثنائية خرج فيها حزب الله إلى النور.

وإذا كان نصر الله يتحدث كثيرا عن الأولويات ويختار كلماته بعناية وهو يوضح مفهومه لها حتى لا يقع فى أدنى حرج مع الحكومات العربية، إلاّ أنه يرى أن مقاومة إسرائيل فى مقدمة الأولويات، وأنه غير معني بمقاومة الحكومات، بل إنه قد يدين ذلك فى بعض الأحيان .. ومناسبة حديثى عن الأولويات هنا أننى لا أستطيع مقاومة الحديث عن نصر الله وحياته وسأضعها فى مقدمة الأولويات الآن وبعدها .. «حزب الله»!

من المعلومات المتوافرة عن حسن نصر الله على الورق وشاشات الكمبيوتر تعلم أن حياته على أرض الواقع .. متناثرة وصعبة ومراوغة إلى أقصى حد .. أما أكثر ما يشبه حياة نصر الله وحزبه فهى مواقعه على شبكة «الإنترنت»، التى تتبدل كل يوم بحكم الغارات الإسرائيلية عليها، لكنها عندما تظهر تكون أنيقة براقة زاهية الألوان لا علاقة لها بالسواد الذى تتميز به ملابس نصر الله وأتباع حزبه .. إنهم يخاطبون أنفسهم وذويهم بلغة يحبونها «كربلاء/ سواد/ استشهاد الحسين» ويخاطبون العالم – عبر الإنترنت– وفقا لأحدث خطوط وألوان الموضة والاتصالات.

شعرت بالأسى والشجن فى لحظتين من حياة هذا الرجل .. الأولى عند «ميلاد»، والثانية عند «وفاة».. ميلاده هو الذى يوجد تاريخان له بحسب حوارات وكتب صدرت عنه، الأول فى ١٩٥٨ والثانى فى ١٩٦٠.. المهم أنه عند كتابة سطورى عنه لم يتخط الأربعين بكثير .. وكان الميلاد فى أحد أحزمة البؤس والفقر حول بيروت فى حى «شرشبوك» .. وعاش فترة فى هذا الحى مع والده الذى كان يمتلك دكانا فقيرا كسائر الشيعة وفقرهم الشديد فى لبنان .. حاولت أن أجمع ما تيسر من معلومات عن تلك الفترة من حياته إلا أنها كانت قليلة جدا، لكنك لست فى حاجة لها إذا استمعت إلى العديد من المحللين المعنيين بأمر الشيعة فى لبنان عندما يؤكدون أن منازلهم الفقيرة وحياتهم البائسة خاصة بالقرب من الاحتلال الإسرائيلى أو تحت نيره فى جنوب لبنان كانت تمثل أصلح تربة لنمو «الشهادة» وولادة الشهداء.

تبدو لحظة ميلاد نصر الله مؤثرة فى شخصيته فهى ككل لحظات لبنان أبدا محفوفة بالمخاطر والقلق والتنوع ما بين المذاهب الدينية والعرقية والسياسية، التى تقف كلها على حافة التهديد الإسرائيلى، ويذكر العديد من رفاق طفولته أنه لم يختلف كثيرا فى شبابه الممتد حتى اليوم عن طفولته إلا فى المناورة والمهارة السياسية، لكنه ظل طوال هذا الوقت الممتد متدينا، شرسا فى رفضه أى مزاح يمس الدين أو الذات الإلهية، ولطالما تخاصم مع رفاقه إلى حد القطيعة بسبب تلك المسائل، وكان أغلب رفاقه فى فترة الصبا موزعين بين شيوعيين وناصريين وبعثيين وقوميين.

أما اللحظة الثانية فهى عند استشهاد ولده البكر «هادى» فى مواجهة غارة للقوات الإسرائيلية .. تلك اللحظة كانت فى مكتبه بعد تلقيه خبر استشهاد نجله، حيث طلب من زملائه أن يتركوه وحده فى مكتبه لعدة دقائق .. وبعد شهور كشف عن أنه لم يطلب خلوة ليبكى ، وأن كل ما فعله هو أنه استجمع قواه وقيمه ومفاهيمه التى أوصلته إلى هذا المقام، بعدها خرج متماسكا قويا ليتلقى التعازى.

أعتقد أن هاتين اللحظتين صنعتا شخصية هذا الرجل، وفى سياقهما تأثره بشخصيتين غاية فى الأهمية هما الإمام موسى الصدر والسيد محمد باقر الصدر المفكر الشيعى الذى لم يتجاوز كثيرون دراستيه المهمتين «اقتصادنا» و«فلسفتنا».

لماذا هاتان اللحظتان ؟... لأنهما تتسقان تماما مع مفاهيم شيعية أصيلة، تتعلق بالجهاد والتحمل والصبر والتضحية والفرح بالشهادة والوصول بالنفس حد تمنيها ليل نهار.

وأعتقد أن الرجل إندفع من فقر خالص إلى شهادة خالصة، جعلته يبدو الآن متجردا ومتفرغا لمهمته التى برع فيها، وهى التأثير على الناس، من خلال «الكاريزما» التى يتمتع بها وتأثيرها على الآخرين حتى وإن كانت معلوماتهم عنه محدودة.

عبد الكريم والد السيد حسن نصرالله كان مهتما بالرعاية العلمية «الدينية طبعا» لإبنه، فأدخله مدرسة النجاح بـ «النبعة» ليدرس فى المرحلة الابتدائية، وتابع دراسته التكميلية فى الثانوية التربوية فى «سن الفيل» . وجاءت معرفته بالسيد محمد حسين فضل الله المرجع الشيعى المهم فى لبنان، عبر إعتياده أداء الصلاة فى مسجد أسرة التآخى بالنبعة. كان السيد فضل الله يشرف على هذا المسجد .. ولم تمض أيام كثيرة بعد دراسته التكميلية حتى إندلعت الحرب الأهلية فى لبنان ومعها جاء نداء الجنوب، حيث عاد نصر الله إلى مسقط رأس عائلته فى بلدة البازورية فى الجنوب اللبنانى ليعيش حرمانا أقسى مما تربى عليه فى الكرنتينا التى شهدت مجازر مروعة، وظلت عيناه عليها طوال الوقت .. وخلال وجوده فى الجنوب عاش أياما طويلة من القراءة والتأمل، ولا أدرى هل كان خياله يرسم له فى تلك الفترة «١٩٧٥ - ١٩٧٦» الإجتياح الإسرائيلى للبنان، ثم دوره ـ شخصياً ـ فى إنشاء حزب الله وأنه سيصبح «السيد» رئيس تحرير الجنوب! .. إنه فى تلك الفترة كان يفكر فى أشياء كثيرة، لكن ما فعله أنه أسس مكتبة صغيرة بمساعدة الشيخ على شمس الدين، ثم صار يعطى دروسا دينية مبسطة للشبان الذين يترددون على مكتبته، قبل تلك الفترة بقليل كان قد درس الصف الأول

الثانوى فى «صور»، وانضم إلى حركة «أمل» الشيعية عام ١٩٧٦، وتم تعيينه مسئولا تنظيميا للحركة فى منطقة «البازورية»، وتعرف هناك إلى الدكتور مصطفى شمران الذى كان له دور بارز فى توجيهه فى العمل معه لخدمة أهداف «أمل».

من المهم أن نلاحظ طوال الوقت أن هذا الرجل لم يأت - أو يتحرك - فى فراغ .. لكن حياته كلها عبارة عن مجموعة دوائر تمضى فى دائرة كبيرة، وتتقاطع بعض خيوطها أحيانا - ولا تصطدم - بعناية ولأهداف ليس من التآمر والظن أنها مرسومة.

فهو سيذهب إلى «النجف الأشرف» مدرسة العلم الشيعى فى إيران يوم ١٥ ديسمبر ١٩٧٦، وسيلتقى هناك بعباس موسوى الذى سبقه فى المنصب الذى يتولاه الآن «الأمين العام لحزب الله»، ومنذ هذا اللقاء توطدت العلاقة .. ليؤسسا الحزب فيما بعد.

فى النجف الأشرف الذى ذهب إليه نصر الله كان هناك الإمام الشيعى البارز السيد محمد باقر الصدر، أحد أبرز العقليات الشيعية المهمة،. وذهب إليه نصر الله بخطاب توجيه من السيد محمد الغروى، ولا أحد - بالطبع - يلتقى الإمام الصدر ولا يتأثر به،. وكان النظام فى العراق قد إستقبل «الصدر» فى البداية بالترحيب إلا أنه ضاق به بعد سنوات، وحسب روايات كثيرة فقد قتله النظام وشقيقته «بنت الهدى» يوم ٨ سبتمبر ١٩٨٠ بتهمة الإعداد لثورة إسلامية فى العراق .. (.. يذكر أن ٥روايات تحدثت عن أن الرئيس العراقى السابق صدام حسين قال متهكمًا لحظة القبض عليه عندما سألوه لماذا أعدمت

«الصدر»؟.."صدر أم رجل – بكسر الرّاء –" ؟) بالطبع سيعود نصر الله إلى لبنان لكنه ظل قبل تلك العودة لأكثر من عام ونصف العام تلميذا لعباس موسوى .. عاد إلى لبنان عام ١٩٧٨، وتابع الدراسة فى مدرسة الإمام المنتظر التى أسسها موسوى فى «بعلبك» وكان مديرها، أما عدد تلاميذها فكان ثمانية فقط!

خلال دراسته فى مدرسة موسوى إنضم إلى حركة «أمل»، وتولى مواقع تنظيمية فيها، لكن إندلاع الثورة الإسلامية فى إيران كان حدثا مهما فى تاريخ حياته، وحياة حزب الله فيما بعد،إذ أن تلك الثورة أفرزت واقعا جديدا فى أوساط الشيعة فى لبنان، وحركة «أمل» تحديدا التى شهدت انقساما بين فريقين.

الأول: يريد الإنخراط فى اللعبة السياسية اللبنانية، بنفس الشروط والمعطيات المتعارف عليها فى ذلك الوقت.

الثانى: رأى فى الثورة الإيرانية مرجعا سياسيا جديدا وليس مجرد مرجع دينى، ففتح خطا مباشرا مع إيران وتلقى منها الدعم المادى الكبير والمعنوى طبعا، وأسهم هذا الدعم فى لحظة مناسبة - عقب الاجتياح الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ - فى ولادة حزب الله، وإتسع الشرخ بين الفريقين حتى اليوم إلا أنه يخفت بمهارة – خاصة من جانب حزب الله – كلما اشتعل ظهور إسرائيل فى سماء لبنان .. فمتى إختفى هذا الظهور؟!.

لا أريد الآن أن أبدى رأيا فى خيارات الفريقين، فضلا عن صعوبة الخوض فى مثلث الرعب المعروف بأحزاب لبنان، إلا أننى أقصر الحديث الآن عن مسيرة نصر الله وحزبه.

مع الإجتياح الإسرائيلى للبنان بدأ مخاض حزب الله، وكانت الأجواء الدموية التى خلَّفها الاعتداء الإسرائيلى مناسبة لأن يتنادى الجميع: الدماء .. الدماء! .. فدماء اللبنانيين «وغيرهم من الفلسطينيين» التى سالت على أرض لبنان نقلت الشيعة فورا إلى دماء الحسين على أرض كربلاء، هذا من ناحية التكوين النفسى أو «الجينى»، ولأنهم غاية فى الصمت والقهر فقد تعلموا الدقة وخطوا خطوات أوسع نحو «براجماتية» يسهل لها مفهوم «التقية» الشيعى كل ما تريده تلك البراجماتية، وأسفر الأمر فى النهاية عن تأسيس حزب الله على أيدى أسماء بارزه منها «الشهيد عباس موسوى - الشيخ محمد يزبك - السيد حسن نصر الله - السيد إبراهيم أمين - الشيخ صبحى الطفيلى - الشيخ راغب حرب .. وغيرهم» إلا أن الأمر إقتضى حوالى العامين وأكثر ليتم الإعلان رسميا عن الحزب وإسمه ووثيقته الشهيرة «الرسالة المفتوحة»، وذلك فى ١٦ فبراير عام ١٩٨٥ ، لتبدأ حركة الحزب فى التبلور عبر فريق الشهادة الذى يصل فى بعض مراحله إلى انسحاب إسرائيل، ودخول ٨ ثم ٩ من أعضائه البرلمان اللبنانى، وإقامة العديد من المنشآت والمؤسسات الإقتصادية والإجتماعية والإعلامية، مما جعل وضاح شرارة يكتب كتابا بعنوان «دولة حزب الله»، لكن كثيرا من أفكار نصر الله المعلنة ترفض فكرة أن يكون حزبه دولة وإن لم أشعر تماما أنه ينفى ذلك بشكل مطلق ومستقبلى عن حزبه وكوادره.

وفى إجابته لسؤال من صحيفة «الأهرام»: ما هو مدلول تسمية «حزب الله» .. وهل تعنى هذه التسمية أن كل من لا ينتمى إلى الحزب ينتمى

إلى حزب الشيطان؟ يقول نصر الله: «أطلق حزب الله هذا الاسم على مجموعة الناس الذين يطيعون الله ورسوله، ونحن ندعى أننا نطيع الله ورسوله، لذلك نحن نستحق هذا اللقب، ولكن لا يعنى هذا أننا معصومون من الخطأ، أو أننا لا نُهزم أو نُغلب!.»

ليس من شك فى مشروعية طرح هذا التساؤل: من الذى صنع حزب الله؟! .. الإجابة الظاهرة على السطح وتاريخ حزب الله الذى يكتبه مريدوه تقول إنها: ظروف قاسية عاشها – ومازالوا – الشيعة فى لبنان ثم حرب أهلية لبنانية، فإجتياح إسرائيلى للبنان، كل ذلك خلق بيئة صالحة للإستشهاد .. بيئة ولدت ما بين آليتين : الذل والتعذيب .. هذا من ناحية الظرف التاريخى، أما من ناحية البقاء والإستمرار فحسن نصر الله قالها صراحة إنه يتلقى الدعم من إيران حيث قال: «إن ذلك شرف لها –يقصد إيران –»، وقال بوضوح قاطع فى حوار مع مجلة «المشاهد السياسى»: «مثلا لدينا مؤسسة إسمها جهاد البناء، وهناك مؤسستان من هذا النوع، واحدة تابعة لحزب الله والحزب يقوم بتمويلها، وواحدة تابعة للمؤسسة الأم فى إيران ، وإيران تقوم بتمويلها بشكل مباشر .. نستطيع أن نقول إنه فيما يخص العبء الاجتماعى الإنمائى والتربوى فإن هناك مؤسسات إيرانية تعمل وتدعم المؤسسات الموجودة فى لبنان، سواء كانت تابعة لها مباشرة أم لا..

وهناك مصدر آخر من مصادر التمويل هو ما نسميه نحن الشيعة بالحقوق الشرعية .. وفى الفقه الشيعى أرباح التجارة، ويتعلق بها الخُمس، والخمس لا يختص حسب الفقه الشيعى بغنائم الحرب، والكثير من هؤلاء المؤمنين المسلمين الشيعة يدفعون خُمس أموالهم، فنحن نتلقى

هذه الأخماس، ولدينا إجازات للإستفادة من الحقوق الشرعية من مراجع الدين الشيعة، وهذه الأخماس تصرف للشئون الجهادية والتربوية والثقافية والاجتماعية، وما شاكل وأنتم تعرفون أن مصدر هذا التمويل كبير ومهم، والمصدر الآخر هو التبرعات، فنحن يأتينا كَمٌّ جيد من التبرعات من داخل وخارج لبنان،.. مثلا فى لبنان وعلى الرغم من الظروف الاجتماعية الصعبة، هناك أموال كثيرة تجمع وتدفع فى لبنان وخصوصا فى السنوات الأخيرة، نتيجة ثقة الناس بهذه المعارضة وصدقها ومصداقيتها وأمانتها، ولعل المقاومة الإسلامية اليوم هى أكثر جهة تحصل على تبرعات داخل لبنان وحتى خارج لبنان .. إذن فمن مصادر التمويل هذه نحن نؤمن احتياجاتنا، ونحن لا نحتاج إلى مبالغ طائلة لأن جبهتنا محدودة، وحتى الإمكانيات التى نحتاجها فى شكل قتال حرب العصابات وليس الحال كما لو كان لدينا جيش كلاسيكى أو نظامى..»

طبعا أنا فهمت كلام السيد نصر الله على أنه نوع من التواضع الذى يشتهر به، خاصة عندما يتحدث عن حرب العصابات فهى ليست أى حرب أو أى عصابات، إنها حرب شرسة تقدمت كثيرا فى تقنيتها من جانب حزب الله بشهادة كثير من الخبراء، فضلا عن المؤسسات الاقتصادية والإعلامية الكبيرة التى ينفق عليها حزب الله.

بالتأكيد لا تغطى نفقاتها جميعا تلك الأخماس التى تحدث عنها، حتى وإن كانت تلك المؤسسات مجرد أسداس بين نظيراتها!.

المهم أن هذا الرجل / الشاب العصرى فى حضوره وأفكاره

وإبتسامته استطاع أن يحدث نقلة على المستويين السياسى والعسكرى، بعد أن تم انتخابه أمينا عاما لحزب الله عام ١٩٩٢، عقب إستشهاد عباس موسوى على يد قوة إسرائيلية محمولة جوا هاجمت موكبه فى جنوب لبنان، ووصول نصر الله لهذا المنصب جاء مؤكدا مهارته فى اجتياز المراحل .. إختصارا! .. فخلال دراسته فى «الحوزة» العلمية فى «النجف» إجتاز خلال عامين فقط مراحل دراسية تحتاج إلى خمس سنوات!، وفى ١٩٩٢ كان أصغر أعضاء مجلس شورى حزب الله سنا، ولم يكن نائب الأمين العام إلا أنه انتخب لهذا المنصب لتظهر بصماته على الحزب وتعرف إسرائيل رعب «الكاتيوشا» بعدما أطلق نظريته.«توازن الرعب».

تعرض نصر الله خلال مسيرته كأمين عام لحزب الله لعدد من محاولات الإغتيال إلا أنه نفى بعضها ونظر للبعض الآخر دون خوف ويراه أمرا روتينيا، فهو على حسب قوله لا يعرف الخوف، وإن كان يعرف الحذر.

والحذر والدبلوماسية المتقدمة فى براجماتيتها تبدو واضحة جدا فى كل تصرفات و«خطاب» نصر الله السياسى، ويقنعك بمنطقهُ الصعب بكل سهولة وكأنه يرسم لك «بورتريه» يذكرك ببورتريهات صبرى راغب، حيث تحب صورتك بريشته أكثر مما تحبها فى المرآة!.

أيضا تعرض وحزبه خلال فترة الإحتلال إلى محاولات إسرائيلية كثيرة لإحداث اختراق لحزبه إلا أنها لم تنجح، ولا حتى محاولات إحداث شقاق!، كذلك لم تتوقف إسرائيل عن محاولات ضرب المدنيين الشيعة

فى الجنوب وغيره من المناطق اللبنانية حتى ينقلبوا على حزب الله، إلا أن شخصية نصر الله وتأثيرها الروحى كان لها الأثر الكبير فى إعادة مفاهيم التضحية والشهادة إلى الشيعية، إلى الحد الذى أصبح فيه عامة الشيعة فى جنوب لبنان - وخارجه - يعدون أبناءهم ليكونوا شهداء لدى نصر الله، كما يعد آخرون أبناءهم ليكونوا أطباء أو مهندسين .. واضطر نصر الله فى نهاية الأمر إلى تأسيس ما عرف باسم «السرايا» التى ضمت قبل عامين - أو أقل - من الانسحاب الإسرائيلى كل من تطوع من غير الشيعة للقتال ضد الإسرائيليين تحت إمرة نصرالله.

لا تخطئ الأذن أو العين رشاقة كلمات نصرالله واختياره لها بعناية، ولا يكون العقل مجاملا إذا قال إن تلك الكلمات لا تصدر إلا عن ثقافة متنوعة ومجاهدة فى تحصيلها، وتربية سياسية رفيعة تجاوزت الكثير من العراقيل التى يصمم البعض أن يضعها بإسم الدين أمام السياسة والفكر، لكن ذلك لا يمنع من التزامه بخط دينى محدد وإخلاص واضح للفكر السياسى الشيعى، لكنه بالتأكيد أحدث تطويرا - خدمته فيه ظروف عمله السياسى - فى هذا الفكر يحتاج إلى التأمل أكثر من محاولات النسخ.

حيث يبدو هذ الفكر - والسلوك السياسى - إبن بحره فلا يمكن أن يسبح فى ماء آخر وإلاّ نَفَقَ بعد لحظات أو أيام .. والبديل الوحيد لنحافظ عليه حيا إذا أردنا نقله معنا، هو أن يصبح زينة داخل حوض نتعلم منه القدرة على التنفس طويلا تحت الماء، حتى وإن كان ملوثا بإسرائيل!.

ومن بين ما يدعو للتأمل قدرة نصرالله على التحليل الثاقب، والذى لا أستطيع أن أجزم الآن إن كان يستند إلى حس سياسى مدرب أم إلى معلومات؟، فقد سأله صحفى فى مارس ١٩٩٣ عن إمكانية انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان فقال إنه لا توجد مؤشرات لذلك، وذكر أسبابا كثيرة تؤكد أن الإنسحاب لن يتم فى هذا التوقيت، ووضع العديد من السيناريوهات لإنسحاب إسرائيل إلا أنه عند، سيناريو إنسحاب إسرائيل من طرف واحد قال: «إن الانسحاب من طرف واحد بلا قيد ولا شرط سوف يشجع الشارع الفلسطينى ويدفعه للإنتفاضة من جديد والعودة إلى خيار المقاومة .. وبالفعل – بعد عامين من حديثه – إنسحب آخر جندى إسرائيلى من جنوب لبنان ليلة ٢٤ مايو عام ٢٠٠٠ وإندلعت الانتفاضة الثانية فى سبتمبر من العام نفسه؟!.»

وعلى الرغم من أن العلاقة واضحة ومعلنة بين نصرالله وحزب الله وإيران إلا أنه استطاع بمهارة سياسية أن يحافظ على خطوط إتصال مع معظم الدول العربية وحتى الخليجية .. مستفيدا من كافة أشكال دعمها وداعيا لإختبار مواقفه السياسية منها، وأذكر أنه أصدر بيانا أدان حادث الأقصر الإرهابى، كما أنه حريص – عندما يُسأل ـ عن الإشارة إلى خصوصية أهداف و«أولويات» حزب الله عن غيره من الفصائل الإسلامية فى أنحاء الوطن العربى، ـ مثلا يقول ردا على أحد تلك الأسئلة: «لا نريد أن تكون لنا مشكلة مع أحد .. هذه سياستنا، نحن حزب الله فى لبنان .. لا نريد أن ندرب أى عربى أو مسلم له مشكلة مع نظامه أو مع حكومته، ولا نريد أن تكون لنا مشكلة مع أحد فى العالمين العربى والإسلامى، ولا

نريد أن نتدخل فى مشاكل هؤلاء .. ونحن نعتبر أننا نخوض قتالا مع عدو هذه الأمة ونحتاج إلى جمع كل الطاقات .. وكل القوى فى مواجهته، وإن كانت هذه القوى والطاقات تعيش فيما بينها مشاكل داخلية، وعلى هذا الأساس أقول سلفا وبشكل قاطع وأكيد: ليس لدى حزبنا أى أنشطة، وليست لديه أى نيات تتعلق بالمشاكل الداخلية فى العالم العربى أو الإسلامى».

إن إنتاج تلك الأفكار فى مجال المناورة السياسية كان سيظل مجرد خطب حماسية كالتى يجيدها البعض فى عالمنا العربى، إلا أن ما جعل هذا الرجل لا يتكرر كثيرا ليس الظروف التى صنعته فحسب ولكن إقتران الفكر بالفعل .. فالفكر إن لم يوازيه تطور فى الفعل يتقزم أو يتضخم، ويصبح فى الحالتين مثيرا للسخرية والرثاء .. لكن نصر الله طوّر الإثنين معا، – مثلا – أنشأ بعد تسلمه أمانة الحزب العديد من المؤسسات التى جرى تطويرها لرعاية أبناء الشهداء، وأعجبنى أن تلك المؤسسات لا ترعى أبناء الشهداء فى دور للأيتام .. وإنما ترعاهم فى بيوتهم وإلى سن يكونون فيها ليسوا فى حاجة إلى رعاية تلك المؤسسات، حتى يضمن تماما كل شهيد أن أبناءه وأهله لن يضاروا بإستشهاده، أيضا علاقة الحزب بالعمل الإعلامى شهدت تطورا كبيرا خلال السنوات القليلة الماضية بعدما أصبح يمتلك أكثر من محطة تليفزيونية وإذاعية أشهرها تليفزيون «المنار» وإذاعة «النور»، فضلا عن مواقع متقدمة على شبكة الانترنت منها «العهد»و«المنار» و«نصر الله»، وكذلك أنهت أفكار نصرالله التى تستند إلى مراجع شيعية كثيرا من

القيود حول دور المرأة - الحقيقى وليس الشعاراتى - فى العمل بالتحديد فى ظل ظروف إحتلال قاس أو وضع اقتصادى أكثر قسوة، فضلا عن وعيه وحزبه التام بظروف مجتمعه وعالمه.

لقد أدرك أن التنوع والاختلاف فى الأفكار والمذاهب والأديان أصبح إما أن يكون أداة قوة أو أداة ضعف لحزبه .. وبخاصة فى لبنان، فقَبِل تعاون الجميع معه ليصل إلى هدفه، حتى وإن لم يكونوا شيعة، بل وحتى إن كانوا ماركسيين أو شيوعيين وغيرهم!. صوت حسن نصرالله الذى يأتى هادئا ناعما عندما يتكلم فى السياسة .. ويهدر عند ذكر العدو والحرب، ثم يعود إلى حد البكاء عند ذكر الحسين أو الاستشهاد، ينبئ عن رجل يعطى كل ذى حق حقه. الله والعقل والسياسة! .. ورجل بتلك العقلية لا ينتهى دوره برحيل عدوه عن أرضه، ولا يطول عمر حزبه بمجرد ثورة أو تحرير .. عندما سئل: هل تخططون لإقامة دولة الخلافة؟ قال: «نحن لا نفكر «الآن» بهذه الطريقة، ولا توجد خطط للوصول إلى مثل هذا الهدف، و«الأولوية» لحزب الله هى دفع مخاطر المشروع الصهيونى» . أعدتُ قراءة كلماته ووضعت الأقواس من عندى فوق كلمتى الآن» و «الأولوية»، لأتعلم كيف أتكلم إذا كان الهدف كبيرا والسفر طويلا والزاد قليلا والأعداء ينتشرون فى كل موضع .. قريبين .. وربما تحت الجلد!!.

# 2 الفصل الثاني



# لتنال ماتريد.. ليس سوى العناد !

« أدار لى قائد الميليشيا ظهره وأخذ يلتهم طعامه. تولانى الذهول، واحترت فى أمرى. الفرصة سانحة ومثالية. فى حوزتى سلاح، وهو يدير لى ظهره. أدخلت يدى فى المحفظة التى أحملها إلى جانبى وأخرجت.. منديلا. تحسست حجم المسدس الثقيل لصق خاصرتى، غير أنى ألفيتنى عاجزة عن التماسك. ليس هكذا، ليس وهو يتناول الطعام، أيا كان، ليس من الخلف، من الظهر. »

## «سهى بشارة»

أن تصبح الحرب «خبزا يوميا» معنى قد يصلح لقصيدة، ومن الصعب أن تتصوره إن لم تعشه عن قرب. لكن هناك قلائل تعتبر حياتهم تجسيدا لهذا المعنى لأنهم عاشوا ـ بالفعل ـ وكبروا داخل تلك الحرب.. ومنهم «سهى بشارة» التى عرفت الحرب وهى فى السادسة من عمرها، وتنقلت بين أكثر من قرية ومدينة فى لبنان تحت القصف وهى تكاد تكون طفلة، ودخلت أول معسكر كشفى كعضوة فى الحزب الشيوعى اللبنانى وهى فى الخامسة عشرة لتجد نفسها فى نهاية الأمر تطلق الرصاص على قائد جيش لبنان الجنوبى العميل أنطوان لحد، ثم لتقضى عشر سنوات من زهرة شبابها فى أبشع معتقل بجنوب لبنان «معتقل الخيام»، دخلته وهى تغادر المراهقة بقليل وعمرها ٢١ عاما، وخرجت منه بميراث العجائز فى عمر الشباب، وردة عاشت حياة حافلة عبر تلك السنوات العشر من المهم

ارجو ان تبقى «سهى» فى حياتها خارج المعتقل كما هى فى مذكراتها عن المعتقل، حيث لم يعد هناك «مناضلون» حقيقيون «بيننا».. بعيدا عن الورق!

التوقف أمامها بتأمل. وبالنسبة لى فقد أصابنى هذا التأمل بالكثير من الإحباط والإستفزاز معا.

عندما إلتهمت فى ليلة واحدة مذكرات سهى بشارة التى صدرت بالفرنسية وترجمت (عام ٢٠٠٢) إلى العربية لم يعلق فى ذهنى شىء أكثر إبهارا من صورتها، ليست صورتها المطبوعة بحجم كبير على الكتاب الذى يحمل اسم (مقاوِمة) - بكسر الواو ، ولكن صورة تلك الروح التى تحمل اسم شابة تدعى (سهى بشارة) إنها أقرب إلى الصلب المرن.. حياة تحمل الكثير من التفاصيل ، ولا تتصور أن هذا الجسد النحيل كان يحملها وحده.، وأجمل ما فى تلك المذكرات هى هذه العفوية المكتوبة بها والتسلسل الزمنى الأخاذ.. فهى تبدأ من «دير ميماس» موطنها حيث مولدها وهى قرية بجنوب لبنان سيتردد إسمها كثيرا خلال تلك المذكرات لأنها ستنتقل منها وإليها خلال مسيرتها الجميلة وهى تصفها بقولها: «دير ميماس هى قريتى فى جنوب لبنان، قرية وادعة لا أبسط من بيوتها المئة ذات الأسطح المتربة، والقائمة على سفح الجبل وفيها ثلاث كنائس وتحيط بها أشجار الزيتون من كل ناحية.. قريتنا مسيحية وعائلتنا من الطائفة الأرثوذكسية واسم عائلتنا العربى ينبئ بالبشارة التى أعلنها الملاك لمريم العذراء».

ولدت سهى فى «دير ميماس» يوم ١٥ يونيو ١٩٦٧. وفى عبارات دالة تتذكر: «لم أحتفل يوما بعيد مولدى ولاسيما فى ذلك العيد الذى بلغت فيه الخامسة عشرة. فالخامس عشر من يونيو فى العام ١٩٨٢

لم يكن جديرا بأى احتفال وكنا نعد العدة لمغادرة بيتنا فى اتجاه منفى آخر فى الجنوب. وكان أعدائى على مدى نظرى: الاسرائيليون يعسكرون لدى بوابة مدينتى منتصرين».

تلك الرؤية المشحونة بالغضب التى تتحدث عنها سهى بإتجاه الإسرائيليين وهى إبنة الخامسة عشرة.. رؤية راسخة لديها، وتربت عليها منذ كانت ترى عن بعد عبر تلال قريتها التى أدركت منها أن (دير ميماس) على مرمى حجر من إسرائيل وتصف ذلك.. «كان يكفى المرء أن يسلك الطريق التى تجتاز القرية إلى خارجها حتى يبلغ إلى أول خط حدودى»

ورغم كل ذلك فإن أحداً من أهل دير ميماس لم يكن يتصور أن إسرائيل ستجتاح الجنوب وتصل إلى بيروت فى ١٩٧٨ وبشاعرية ثاقبة تتحدث سهى عن طفولتها المختلطة بهواجس إسرائيلية «كنا لا نزال إلى حينه نتجاهل وجود جيراننا إلى الجنوب من أرضنا أو كأننا سترنا وجودهم بألف حجة حتى لكأننا إذ نطردهم من أذهاننا نعوض عن طردنا إياهم من الأرض التى باتت أرضهم»

ومنذ البداية تبدو سهى وكأنها مرشحة لحياة ما.. فهى ولدت غداة نكسة ١٩٦٧ - ١٥ يونيو - وكانت - على حد قولها - :«الجيوش العربية تجرجر أذيال الهزيمة على يد الجيش الإسرائيلى وكان جمال عبدالناصر فى هذه اللحظة بالذات ومن القاهرة يقدم استقالته إلى شعب مصاب بالذهول من رؤية رئيسه الأسطورى يتهاوى. ولئن كنت وُلدت فى يوم هزيمة للعالم العربى فإننى فضلا عن ذلك آخر

المولودين فى عائلتى، تزوج والداى عام ١٩٥٨ وكان كل منهما فى العشرين من عمره، فكان أن ولد أخى «عدنان» فى السنة التى تلت زواجهما، ثم أبصرت النور أختى حنان، وفيما بعد ولد أخى عمر، وفى آخر العنقود كنت أنا أخيراً. ولربما أتت تسميتى «سهى» وتعنى النجمة تيمنا وطلبا للبقاء». والد سهى «فواز» شيوعى نقابى منذ سنواته الأولى، فضلا عن إثنين من أشقائه، وبدأت «سهى» فى «إتحاد الشباب الديمقراطى» وإنخرطت فى المعسكرات الكشفية وإكتسبت خبرات كبيرة إلا أنها كانت طوال الوقت نسقا خاصا وحدها.. وكان هناك شيء دقيق يتكون فى داخلها لا علاقة له - مباشرة - بالعديد من الأفكار التى تتداولها علنا، اهتمامها الخاص كان مادة الرياضيات التى تفوقت فيها ، وحصلت على أول عائد مادى فى حياتها من تدريس تلك المادة خصوصيا ، فكانت تتكفل بمصاريفها وهى لم تتجاوز الرابعة عشرة بعد! تقول :

«إكتشفت مبدأ ثبت لى صدقه فيما بعد: وهو أن الناس توكل مسئوليات الى الناس الأكثر حيوية أيا كانت أذواقهم وميولهم حياله» ، هكذا فهمت سهى الطريق منذ البداية ، فكانت محافظة على حيويتها طوال الوقت فى ظل سماء من الإحباط كانت تخيم على لبنان خلال حربها الأهلية.

منذ بداية السبعينات بدأت «سهى» تتعرف على كثير من المفردات والأجواء السياسية ، بداية من صورة الإسرائيليين فى أرض الواقع إلى الظلم الكبير الواقع على الفلسطينيين، وتتذكر «فى العام ١٩٨٠

وكنت لا أزال فى الثالثة عشرة حضرت للمرة الأولى فى حياتى حفلا للأغانى الملتزمة، وذلك فى مقر الاونيسكو بيروت. ولم يقبل المساء حتى امتلأت القاعة بالحضور الذين أقبلوا لسماع مارسيل خليفة، وتضيف «إلا أن السنوات اللاحقة ولاسيما إثر دخولى إلى الجامعة جعلتنى أتبين بوضوح عمق الإنقسامات التى إنتهى إليها شعبنا!» والحقيقة أن حياة «سهى» التى عرضتها عبر مذكراتها تؤكد أنها واجهت تلك الانقسامات منذ البداية بعلاج واضح وفعال، وهو إختيار هدف محدد.. عرفت العدو فإلتزمت بتكريس حياتها للقضاء عليه بقدر ما تستطيع.. العدو: إسرائيل.

ومع إجتياح لبنان ١٩٨٢ ـ تقول سهى ـ «للمرة الأولى فى حياتى أرانى فى مواجهة عدوى. وإذ غشيتنى هذا الفكرة صرت أترجح بين الخوف منه وتحديه».

لكنها أيام قليلة وحسمت سهى اختيارها ، فهى الملتزمة حزبيا وصاحبة الحيوية المتدفقة نفسيا فلا يمكنها أن تخاف مثلنا واختارت التحدى، وكانت رحلة مغادرتها مع أهلها الجنوب إلى بيروت عقب التمهيد للاجتياح من أهم أسباب ميراث التحدى ـ الذى تحول إلى عناد فيما بعد ـ بداخلها وتصف بعين سينمائية رائعة تلك الرحلة والوجوه التى كانت خائفة وحانقة فتقول: «كان الأغنياء الأسبق إلى مغادرة بيروت بالطائرة أو بسياراتهم أما الذين بقوا فكانوا من الفلسطينيين أو اللبنانيين «الأشد فقرا»..

وبدأت فى تلك الأجواء صورة الفلسطينيين أكثر وضوحا أمام عينى سهى.. « وراح والدى يصف الدموع التى سكبت، والوهن والصمت المطبق اللذين حلا على المدينة وهى تودع هؤلاء الإخوة المنهزمين والمكروهين من بعض منا، ويغادرون موطن لجوئهم البائس مبحرين ولمرة أخرى بإتجاه المجهول. وعلى حد ما روى والدى، فقد تملّك البلاد شعور من المواساة، نادر بإجماعه. ذلك أن والدتى شاءت أن توافى والدى إلى بيروت فى الفترة عينها، وكانت تبدي ريبة حيال أبو عمار، غير أنها مضت ترسل عبارات المواساة حياله وترثى لوضع شعبه وقواته، وللمرة الأولى على ما أذكر. كأن صفحة طويت. بيد أني ظللت على يقين بأن هذا الرحيل لن ينهى المسألة على الإطلاق. وكان من الأكيد لي أن الإسرائيليين أثاروا الذريعة الفلسطينية، وأحسنوا استخدام انقساماتنا ليطيلوا وجودهم فى لبنان لآماد غير معروفة. غير أن الكلمات الأشد إيلاما كانت تلك التى وصف بها والدى، مخيمى صبرا وشاتيلا، والمجازر التى إرتكبت فيهما ضد سكان هذين المخيمين الواقعين جنوب بيروت. آلاف من الأشخاص لقوا مصرعهم فى هذه المذابح، التى كان الإسرائيليون مجرد شاهدين فيها لكونهم يراقبون مداخلهما. وخرجت الأحزاب الوطنية اللبنانية وعرفات، وسرعان ما حملت إسرائيل وحلفاؤها، وميليشيات سعد حداد، والقوات اللبنانية والكتائب المسئولية كاملة».

كانت «سهى» طوال هذا الوقت تستشعر شيئاً فى داخلها ، عبّرت

عنه بصدق في عبارة سريعة هنا.. «منذ الإعلان عن ولادة جبهة المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلى فى السادس عشر من سبتمبر فى العام ١٩٨٢ كففت عن الضياع وعرفت سبيلى. قررت أن ألتزم، ولكن ماذا يُقتضى أن أعمل، وفى أى ظروف، ومع من؟ لم أكن أعرف جوابا عن كل هذه التساؤلات»، لكنها على الأقل إلتزمت.

وفى ظل هذا النوع من النضال والالتزام لا يفوت «سهى» أن تتحدث كأنثى عاشت وتعيش حياة ككل البشر فيها العواطف والعواصف..«والحال أن تحول المقاومة إلى نطاق السرية فى بيروت لم يكن ليسهل أمر ذلك التواصل. وكذلك لم يكن هذا التكتم الشديد الذى لبثت أحفظ فيه قناعاتى العميقة، سواء داخل عائلتى أو لدى أقربائى، ليسهل على الأمر نفسه. وحين كنا نناقش فى الإتحاد مسألة إقتدارنا على القيام بأعمال جريئة، كنت أحذر جيدا من إبداء أى ميل فى إلى هذه الشعلة التى ملكت كيانى منذ أيلول/ سبتمبر الشهير ذاك. فجهدت، على الدوام، فى أن أبدو طالبة نجيبة، تنفر من الخروج إلى السهرات، وتؤثر أن تظل فى المنزل لتعمل، ومندوبة عن الطلاب نشطة غير أنها لا تخرج عن المعقول، وذات رشاد ورزانة، فى حين بطل أن يكون عطاء الذات والتضحية بالنفس فى سبيل القضية، على حساب الشعارات الطنانة، أمرين محرمين منذ العملية الإنتحارية الأولى التى نفذتها فتاة لبنانية فى القطاع المحتل عام ١٩٨٥. سناء محيدلى، ذات الثمانية عشر ربيعا، شاءت أن تفجر بنفسها القنبلة التى كانت تحملها لدى مرور دورية إسرائيلية.

ولئن كنت مسالمة فى طويتى، فإن هذا المثال الذى صعقنى جعلنى مستعدة للنضال. والنضال دونه الكثير من الصعوبات، ولأجله يضحى بالكثير من الأمور. وها أنا وقد بلغت الخامسة عشرة، ذلك العمر الذى يصير فيه متوقعا أن تنمو بين الشباب، فى مرحلة المراهقة، وبين الفتيات، سواء فى المدرسة أو فى الاتحاد، مشاعر تتجاوز المصلحة البحتة،.. أو مشاعر الحب والهوى، وفى هذا الشأن، كنت موضع إعجاب من قبل أحد أصدقائى. وكان عضوا فى الحزب الشيوعى، وما برح ينظر بشىء من الإحتقار إلى أعضاء الإتحاد، وينعتهم بغير الناضجين لأنهم لا يفكرون إلا فى اللهو. ورحت أصغى إليه وهو يبوح لي بحبه، هذا البوح الأول فى حياتى. لم أثبط عزيمته، إلا أنى، وبعد تفكير عميق، صرت على يقين بأن حكاية الحب هذه ربما تحول دون المضى فى مخططى المستقبلى. وكنت، إلى حينه، لا أزال أعرض خدماتى لمرافقة هذا الشخص أو ذاك للعبور فى سيارته إلى نقطة فى بيروت. فإذا ما كنتُ أمضى قدما فى اقتراحاتي، فلأنى كنت أعرف أن وجود زوجين فى سيارة واحدة يثير من الريبة أقل مما يثيره رجل مفرد ـ ولا سيما إذا كانت السيارات التى استقللتها ناقلة للأسلحة والذخائر، على الأغلب. فإن يلتزم المرء ويزيد من إلتزامه، لأمر يستتبع عواقب غير محسوبة. أضف إلى ذلك، فإن الأمثلة التى عاينتها من حولى كانت تردعنى عن مزاوجة المشاعر بالمقاومة. وفى خلال بحثى الدؤوب عن شبكات المقاومة، تقربت من رفيقة فى الحزب ولها صديق ينتمى إلى تنظيم

ماركسى. وكنت أعرف أن هذا الصديق يشك فى كونه مشاركا فى عمليات حربية. وكلما أبدت له صديقته رغبتها فى الالتزام والقتال إلى جانبه، واجهها بالرفض القاطع، محتجا لها بالمخاطر الكثيرة. لم يكن يشاء أن تخاطر فى شىء. ولهذا السبب انتهى بهما الأمر إلى الانفصال».

وبالنسبة إلى «سهى» فقد إنتهت إلى أن القول «فى الواقع كان إختيارى فى ألا يكون لى صديق قليل الكلفة إذ لم يكن يشغلنى سوى أمر واحد، الدخول فى المقاومة، وعانيت الكثير لأجل أن يتحقق هذا الطموح»، وبداية تحقيق طموحها كانت بلقاء مع «مازن» فى أحد أبنية بيروت الغربية، ومن يومها إتصلت بإحدى خلايا المقاومة وعرفت عالما جديدا من الاحتياطات الأمنية، الرموز، وبدأت حياة من الإنفصام المدَّرب، فكانت تعيش وسط أهلها وقريتها التى عادت إليها فى الجنوب بشخصية تقترب من حد السذاجة، وتعيش مع نفسها حياة النضال والإعداد لعمل كبير لم تكن تعرفه بالضبط إلا أنها كانت تدرب نفسها على الانتقام من الإسرائيليين بأوجع وسيلة. وعن شهر يوليه ١٩٨٧ تقول «باتت نصب عينى خطة محددة للغاية وهى فى أهداف ثلاثة: رجال الأمن فى جيش لبنان الجنوبى، والإسرائيليين، وأنطوان لحد شخصيا». – وانطوان كان قائد ما يسمى بـ "جيش لبنان الجنوبى" العميل لإسرائيل– .

وجاءتها الفرصة.. بالمصادفة إذ كانت «مينرڤا» زوجة أنطوان لحد فى حاجة إلى مُدرِّسة تمرينات رياضية لتقيم مدرَسة تدريب فى هذا

المجال، وتقدمت «سهى» للعمل لديها وقبلتها «السيدة الأولى فى لبنان الجنوبى».. على حد وصف «سهى» الساخر لمينرفا.

وبدأت «سهى» تتردد على منزل «لحد» وتحدد لها راتب «خمسة دولارات عن الشخص الواحد» وقبل أن تواصل العمل بشكل دائم حصلت على أجازة.. «وحين أخذت أجازة، تبدى لي أن ثمة قرارا يسهل سبيله إلى النضوج فى ذهنى شيئاً فشيئاً، فها أنا أخيراً فى الساحة قريبة جدا من الهدف الذى وضعناه نصب أعيننا. وعليه، فإنه يعود لى وحدى أن أقوم بالمهمة الأعظم طموحا مما كنا نتخيله فى هذه الأثناء. أن أقتل انطوان لحد».

بدأت «سهى» عقب ذلك العيش «كمقاومة» عنيدة.. تُقابل أعضاء خليتها فى «مقهى حيث اعتاد العشاق على اللقاء». وأصبحت لغة الإشارات والعلامات طريقا للتواصل مع هؤلاء الأعضاء، ومن أطرف ما ذكرته أن التلويح بعلبة «المارلبورو» كان علامة على وجود رقباء!.

وزيادة فى التمويه بدأت تحبك «سهى» القصص لتبرر غيابها بعيدا عن قريتها ، أولاها أنها وقعت فى قصة حب وهو الأمر الذى كان يتمناه الجميع لها لعلها تتزوج، بعد أن كانت أبعد ما تكون عن هذا العالم، ولمزيد من التعمية كانت لا تتحدث إطلاقا مع أحد فيما يتعلق بجيش الإحتلال أو أى موضوعات سياسية، والمثير أن أحد شرائط الفيديو أظهرها كراقصة وسط الإسرائيليين، خلال زياراتها لمنزل حداد: وانتشر الشريط بين أهل قريتها وأغضبهم ذلك ولم يغضبها

هي، نظرا لما كان يعنيه ذلك من تأمين لها في خطتها. أخيراً تسلمت «سهى» المسدس لتنفذ به عمليتها وأخفته داخل جهاز التليفزيون بغرفتها وظل في مكانه حتى بعد تنفيذ العملية لأنها نفذتها بمسدس آخر!.

أما الإلتزام الصارم فهو لا يتجزأ ، سواء على المستويات العقائدية أو الاخلاقية.. أو حتى العاطفية، وهذا ما سلكته «سهى» عند أول فرصة لقتل «لحد». «وذات يوم - تقولي سهى - حدث ما لا يعقل. فبينما كنت أتحدث مع مينرڤا، إذ بزوجها يدخل إلى المنزل، فوافانا وتبادلنا بعض الكلمات حول الدروس. واقتَرحت عليه امرأته أن يتناول شيئاً. ولما كان الجوع هده، قبِل عن طيب خاطره. للحال، إعتذرت مينرڤا مني، فتركتني وحدي برفقة زوجها. واصلنا أحاديثنا، إلى أن أتت بالطعام، ثم غابت عنا، من جديد. أدار لي قائد الميليشيا ظهره وأخذ يلتهم طعامه. تولاني الذهول، واحترت في أمري. الفرصة سانحة ومثالية. في حوزتي سلاح، وهو يدير لي ظهره. أدخلتُ يدي في المحفظة التي أحملها إلى جانبي وأخرجتُ.. منديلا. تحسست حجم المسدس الثقيل لصق خاصرتي، غير أني ألفيتنيْ عاجزة عن التماسك. ليس هكذا، ليس وهو يتناول الطعام، أيا كان، ليس من الخلف، من الظهر. وكنت عاجزة عن قتل عدوي في ظروف مماثلة. وفي لحظات، غادرتُ المنزل والإرتباك يهز كياني، بعد أن استأذنت ضيفي الذي بدا أنه لم يشك في شيء. وعلى الرغم من أني بقيت عازمة على إتمام عملي، فقد تبين لي، وللمرة

الأولى، مقدار الصعوبة فى هذه المهمة. إذ يقتضى الإغتيال، أيا تكن شرعيته فى نظرى، جرأة على تجاوز نفسى. وفى هذا الصيف من العام ١٩٨٨، وبعد ثلاثة عشر عاما على اندلاع الحرب الأهلية، والفظائع من كل الأنواع التى إرتُكبت فيها، أدركتُ آخر المطاف أننى مازلت أنفر من اللجوء إلى القوة والفظاظة، ما دمت آنف من رؤية مشاهدة العنف على شاشة التليفزيون. وحتى لو كان ما أراه محض إختلاق وتخيل، شأن عمليات تفجير السيارات، فإنه سرعان ما يذكرنى بالجرحى الذين اهتممت بهم، وبصور القتلى الذين لم تقس أطيافهم طباعى ولا مشاعرى».

ورغم ذلك فإن موقف سهى لا يلين إذ أنها مخلوقة من العناد والاخلاص للهدف، فقد جاءت الفرصة من جديد.. فكأن شيئاً لم يكن.. فاليوم موعد تنفيذ العملية.. «صباح الاثنين، إرتديتُ بنطلونا أزرق، وقميصا أبيض، وانتعلتُ باليرين سوداء، وأمكننى الدخول إلى ذلك البيت الجميل الذى يقيم فيه الزوجان، من دون أن أثير ريبة أحدهم أو شكه.. إنها الرتابة.. هناك وافيت مينرڤا وصديقةُ لها إسبانية، وكانتا فى الحديقة، ثم عدنا والتقينا بزوج هذه الأخيرة فى قاعة الاستقبال. وفيما بعد، وافانا انطوان لحد. كان الجو بهجا. كنا نتكلم الفرنسية، وجعلت مينرڤا ترثى، مرة ثانية، لعقليات الناس الضيقة فى المنطقة المحتلة. ومن ثم انتقلنا إلى قاعة الجلوس. وكان قائد الميليشيا جالسا قرب الهاتف، وكنت على يمينه، تماما كما تخيلت المشهد. وأخذت الأحاديث تصير عابثة. أمسكت عن الكلام،

ونأيت بنفسى عن الحوارات الجارية. كنت أصغى. وبعد نصف ساعة أتت الخادمة وسألتنا عما نرغب فى شربه. تمتمت ببعض الكلمات شاكرة.. وقلت إن الوقت بات متأخرا وينبغى لى العودة. وأصر مضيفي على البقاء فإصطنعت البقاء لياقة. أشعل قائد الميليشيا التليفزيون. كانت ساعة الأخبار على قناة المنطقة المحتلة. مر تحقيق عن الانتفاضة. وأتيح لى أن ألمح فتى فلسطينيا وهو يرمى بالحجر. وكان أنطوان لحد يلهو باللاقط ويستمع من غير إنتباه. فى هذه اللحظة رن الهاتف. رفع السماعة وللحال تقطب وجهه. كان محدثه فى الطرف الآخر من الخط، يعالج مواضيع لا تروقه، فى الظاهر. وجهتُ نظرى صوب ساعة الجدار. كانت الساعة لم تبلغ الثامنة مساء بعد. وبدا انطوان لحد، الجالس عن يمينى، يواصل كلامه. وللحظة وقع نظره علي وأخذ يرمقنى بشىء من الفضول، جذبت نحوى الحقيبة الموضوعة لدى قدمى. وكنت هادئة هدوءا غريبا. دسست يدى فى الفتحة مشيرة إلى مينرفا بأنى جلبت لها المفاتيح والشرائط المسجلة التى طلبتها منى. وفى خفية عن الأنظار، قبضت يمناى بشدة على أخمص المسدس. وفيما أنا جالسة، أخرجتُ قبضتى المسلحة بالمسدس من الحقيبة، وببرودة أعصاب، وللحال صوبت، بذراعى اليمنى، نحو قائد الميليشيا، وأسندت معصمي بيسراى. وعلى التخمين، صوبت نحو القلب. وضغطت على الزناد للمرة الأولى، وظننت نفسى أرى الطلقة وهى تخترق سترة الثياب الكاكية لقائد الحرب هذا. فما كان من انطوان

لحد إلا أن قفز على قدميه، مذهولا، تماما كما توقع أحمد (رئيسها في التنظيم). وسمعتُ شتيمة تخرج من بين شفتيه: «بنت الكلب!». فأطلقتُ ثانية، على ما توقعنا. سقط أرضا. توقفت الحياة لثانية في قاعة الجلوس. وما هي إلا لحظة، حتى شق الصمت عويل مينرفا وقد أصابها الإنهيار، وراحت تملأ الفضاء صراخا طالبة سلاحا لتقتص مني، وطوافة عسكرية لإخلاء زوجها. ورميتُ من حولي بنظرة دائرية، فوجدت الصديقة الإسبانية باهتة، تحدق بي وفي عينيها ما ينم عن اختلال. أما زوجها الذي شله الرعب، فراح يرمقني وكأن دوره آت لا محالة، فإغتنمتُ فرصة الذهول هذه ورميت بالمسدس في غرفة النوم المتفرعة عن قاعة الجلوس، وأردت أن أكسب بعض الوقت. ولسوف يبحث الحراس عن السلاح، وحين يفتشون الغرفة يجدونه، وهذا ما لن يتأخر حصوله. وعلى بعد مترين مني، رأيت جسد انطوان لحد يدور على نفسه أرضا، ويتوقف بلا حراك. تم لي ما أردت، ونجحت في القيام بعمليتي».

كانت «سهى» تعرف مصيرها، لكنها لم تعرف تماما ما الذي حدث لـ «لحد» هل قتلتهُ رصاصتاها أم لا.. بمرور الوقت عَرَفَت.. لكن كان وقتا طويلا.. زمنا آخر.. عشرة أشهر متواصلة من التعذيب داخل المعتقل البشع.. «الخيَّام»، بداية بالضرب المبرح بالسياط والتعذيب بالكهرباء والحبس الانفرادي داخل زنزانة عرضها ٨٥ سنتيمترا وارتفاعها متران ونصف المتر فقط.. ألوان من العذاب لم تثبط همتها.. حتى بعد أن عرفت أن خصمها لم يمت قالت بكل ثقة..

«سأركز جهودى للبقاء» المهم أن الرسالة وصلت للإسرائيليين تقول بهشاشة وضعهم، وأكذوبة ضمانِهم لأمنهم.

«خروج المرء من معتقل الخيام حيا ليس بالأمر الأكيد. ولا سيما النساء السجينات. ذلك أن الحياة اليومية فى معتقل الخيام كفيلة بأن تتلف أعظم السجناء بنية. ويكمن هذا الأمر جزئيا فى المناخ المحيط بالمعتقل. فلما كان الأخير يقوم جنوب بيروت، وفى مرتفع من جبال حرمون اللبنانية، وجدته خانقا فى الصيف وجليديا فى الشتاء. ويحدث، كذلك، أن يحل الثلج ضيفا على هذه المرتفعات. أما الأبنية، شأنها فى كل البلدان ذات المناخ الحار، فليست مُعدّة لمجابهة البرد على الإطلاق. وليس فى الزنازين مياه جارية، إنما حرمان النزلاء فيها من كل شىء هو المبدأ. والمعتقلات يملكن أغطية وفرشا عتيقة محشوة بالاسفنج لينمن عليها. أما البطانيات فكانت نادرة، وفوق ذلك فقد رأيت المعتقلات المبنية على أسوأ هيئة تحيل أرضها بؤرة للأمراض والعلل. فالرطوبة، إذ تخرج من الأرض، وتتسلل بين ثنايا الفرش عبر التكاثف، تنخر عظام السجينات نخرا وتجمدها، بالإضافة إلى فرش القش وأنابيب الحديد لنقل الماء، كانت السجينات يتبادلن دلوا من البلاستيك لوضع البراز فيه، وأحيانا يكون هذا الأخير بلا غطاء. وكانت هذه الدلاء تفرغ مرتين يوميا، فى عز البرد وفى قيظ الصيف، على حد سواء. والواقع أن هذا الدلو هو بمثابة وعاء من بين أوعية كثيرة هيئت بالأساس، لتكون صفائح يخزن فيها الزيت للمطبخ. بالطبع، كانت النساء

محرومات من العناية بأنفسهن فى الحدود الدنيا. إذ توجب عليهن، مثلا، أن يصنعن لأنفسهن فوطا صحية من خرق أثوابهن، ويغسلنها باستمرار ويعدن غسلها مرات ومرات».

إيقاع الحياة ثابت فى معتقل الخيام. توقَظ السجينات فجراً ويتناولن فطورا بسيطا للغاية. ويكون عليهن أن ينظفن الزنزانة حيث هن، ثم يتناوبن فى الخروج كل بدورها لإفراغ الدلو، وفى الاستحمام داخل غرفة ضيقة أعدت لهذا الغرض، وتعود بعد أن تملأ صفيحة المياه المخصوصة بهن. وكانت أوقات خروجهن من الزنزانة محسوبة حسابا شبه عسكرى، ومحددة بخمس دقائق، ليس إلا. ومن تتأخر منهن تنل عقوبة شديدة. وعند الظهر، يحمل غداء ضئيل إلى الزنازين. وفى منتصف العصر، تقدم بعض الأطعمة. إذا كانت آونات النهار الثلاثة هذه وحدها تمنح المعتقل حيوية لافتة. أما بقية الوقت فكان الصمت هو القاعدة، ومن يجرؤ على الصياح ينل عقابه. وكذلك فإن السعال ممنوع. وعليه يمكن للسجينات أن يتحادثن بصوت خافت، داخل الزنزانة نفسها، إلا أن تبادل الأحاديث مع النساء فى زنازين أخرى ممنوع، لدواع أمنية».

كانت «سهى» تتصرف وكأن الوضع إستتب لها فى المعتقل وقالت لنفسها «مادمت لم أمت وسلاحى فى يدى ، وأن إعدامى صار مستبعدا، فقد بات علي أن أهيئ نفسى لفترة اعتقال طويلة» وحددَت لنفسها تاريخ الخروج عام ٢٠٠٠ وكان تحليلها يستند إلى أن الإسرائيليين سيغادرون لبنان فى هذا التوقيت.. أى بعد ١٢

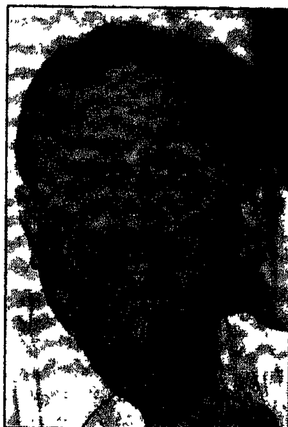
عاما من اعتقالها، أما لماذا ١٢ عاما؟ فتجيب هى «ربما لأنهم كانوا دخلوا إلى لبنان واحتلوا جنوبه لإثنى عشر عاما» وبدأت «سهى» تعمل على مواصلة حياتها فى السجن رغم كل المعاناة، بداية من التمرينات الرياضية التى كانت تؤديها جالسة حيث لا تستطيع القيام داخل زنزانتها الضيقة وإلى التدريب على مضغ طعام الوجبة الوحيدة التى كانت تتناولها يوميا..ببطء.. حتى لا تحدث لها مشاكل فى المعدة.. تعلَمَت الرسم، وكانت المتعة الوحيدة لها ولكل السجينات الإصغاء لوقع أقدام السجانات، ولا تنسى يوم العثور على كنز تمثل فى «مسمار» دقيق فى نعل أحد الأحذية. وتصف.. «وجعلنا الليل كله نحك رأس المسمار الفولاذى بقطعة هى خيط نحاسى كان يستخدم لوصل الكهرباء، ولما كان الفجر، والألم يشل أصابعنا توصلنا إلى ثقب خيط النحاس وادخلنا فيه راس المسمار، هكذا صارت لنا أبرة للخياطة».

كوّنَت «سهى» صداقات مع زميلات خلال الاعتقال، أبرزها مع «كفاح» و«حنان» فضلا عن الاعتياد على شخصية «أبو نبيل» البغيضة، والسجان والمحقق الفظ.، وانقضى صيف ١٩٩٨، وفى الثالث من سبتمبر لنفس العام فى الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة أُطلق سراح «سهى»، وعرَفَت ساعتها أن سنوات عشرا مضت عليها فى المعتقل، ونامت أول ليلة لها فى حريتها الجديدة فى منزل عمها ببيروت، واستيقظَت لتكتب عن أول ليلة تلك «بي شعور معاكس لذا الذى تولانى فى السجن طيلة عشر سنوات، ففى معتقل الخيَّام

كان يتملكنى الشعور نفسه بأننى مازلت فى منزلى ببيروت ولما صرت فى بيروت أخذ يتولانى الشعور بأننى أستيقظ فى الاسر، ولم يبارحنى هذا الشعور، ظل معى لزمن طويل».

شخصياً كنتُ أتمنى أن أعيش كثيراً مما عاشته «سهى»، إلا أن الوقت قد فات، إذ جئت قبلها إلى الدنيا بعام، لكن مازالت أمامنا ـ أنتم وأنا ـ فرصة لنتزود بتلك الطاقة الجبارة من التصميم والعناد اللذين وشما حياتها على أروع صورة.. لم أقرأ كتابا – منذ فترة – تمنيت أن يقرأه الجميع مثل تلك المذكرات، التى تُعلِّم الناس بكل هدوء وتواضع، كيف يترفَّعون على صغائرهم ونزواتهم ومتعهم.. لأول مرة منذ سنوات طويلة أُقابل ـ على الورق ـ «مناضلا» حقيقيا.. وأصدِّقه.. وأرجو أن تظل «سهى» كما هى فى مذكراتها، حيث لم يعد هناك «مناضلون» حقيقيون ..«بيننا».. بعيدا عن الورق!

# الفصل الثالث 3



# «عقل مفاوض.. قلب منتفض!

«الهدف هو
المقدس، وليست الأدوات، وهى قابلة لإعادة
النظر فى كل لحظة».

# مروان البرغوثي

في هذه الدنيا.. إما أن تلعب على كل الأحبال، فتكون بلا قلب ولا مبدأ، وتكسِر رقبة كل من يُصدِّقكَ عندما يكتشف كذبك فوق كل حبل تمشى عليه. أو أن تمشى على حبل واحد، فتكون رقبتك على كفك معرضة للكسر فى كل وقت، فأعصابك مشدودة طوال الليل والحلم والنهار، تخشى الوقوع فى «المحظور» الرابض داخلك أو خارجك، يراك الناس - فوق الحبل - بهلواناً، وأنت فى الحقيقة أكثر هواناً مما يتخيلون، وأرفع منزلة مما يتصورون، لأنك فى نهاية الأمر مشروع قتيل بالإخلاص، أو شهيد يحلم.. بالخلاص.

«مروان البرغوثى» من هذا الصنف الأخير، إختار حبلاً واحداً يمشى فوقه، يمتد بالطول أو بالعَرض، يحلم بالوصول - فوقه - إلى الأرض والعِرض، واختار الصراحة طريقاً، محاذراً مصيرها الذى قال عنه صلاح جاهين:

- «أمّا الصراحة فأمرها ساهل
لكن لا تجلب مال ولا تصون.. عرض»!

إن عرفات لو عرف أنك ستخلفه ولو بعد ٥٠ عاماً سيكرهك الآن».

ما أصعب اختياره، وما أقسى مشواره.

مسيرة «مروان البرغوثى» تدعو للإعجاب الشديد، وتصيبك بعدم الحياد فى بعض مراحلها من فرط سعادتك بوجود تلك النماذج الناضجة على أرض ، نماذج أنضجتها الدماء، التى أفرزت ـ بنفس القدر ـ الشرفاء والعملاء!

فالحبل المشدود بين مسيرة وحياة «البرغوثى» وبين أهدافها له ظاهر وباطن، ظاهرهُ الانتفاضات، وباطنهُ المفاوضات، فهو رجل سياسة بمعنى الكلمة وإن تم تقديمه لكثير من الجماهير العربية خلال الإنتفاضة الثانية كزعيم جماهيرى غاضب فحسب، لكنه يُعتبر خير نموذج يمثل القدرة على استخدام السلاح ـ أى سلاح متاح ـ والسياسة، لكن ليست كل سياسة متاحة، فهو يعتبر كل من يفاوض على حدود لا تبدأ من حدود ١٩٦٧ خائناً، وهو فى الوقت نفسه يقول فى حديث صحفى: «علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن كل عمل يستهدف تحقيق أهداف سياسية، بمعنى أنه لا يوجد عمل من أجل العمل بحد ذاته، فالهدف هو المقدّس، وليست الأدوات، وهى قابلة لإعادة النظر فى كل لحظة». وتلك الفكرة المحورية هى التى تدور حولها ـ حتى الآن ـ حركة وأهداف «البرغوثى» منذ تم سجنه وهو فى نهاية المرحلة الثانوية وإلى سجنه الآن (٢٠٠٢) فى بداية مرحلة قد لا يعرف هو نهايتها، لكنه اختار نهايته التى تشبه كل بداياته النضالية.

....

....

بإختصار شديد، «مروان البرغوثى» عمره الآن لا يتجاوز ٤٢ عاماً، حقق خلالها إنجازات تبدو متباينة، فهو من أهم الكوادر السياسية لحركة فتح، وفى الوقت نفسه تزعم الانتفاضة الثانية ضد الإسرائيليين، والانتفاضة الأقسى ضد رموز السلطة الفلسطينية بمن فيهم «عرفات» نفسه.

«مروان البرغوثى» من مواليد ٦ يونيو ١٩٥٨، أى أنه من مواليد برج «الجوزاء» الذى يجلب الشقاء لصاحبه فى معظم الأحيان!، وهو مولود فى قرية صغيرة إسمها «قادر» بمحافظة «رام الله»، ينحدر من أسرة من الفلاحين البسطاء، وتعلّم حتى المرحلة الإعدادية فى مدارس القرية، وبدأ مسيرة النضال والاعتقال منذ كان فى المرحلة الثانوية، حيث حصل على شهادتها داخل السجن، إلى أن وصل إلى جامعة «بيرزيت»، وبالطبع كان ناشطاً طلابياً بارزاً وتخرج فى الجامعة بعد ١١ عاماً، ليس بسبب النشاطات الطلابية السياسية ولكن بسبب تكرار اعتقاله. وخلال مرحلة الجامعة تم انتخابه رئيساً لمجلس طلابها ثلاث مرات متتالية، كما أنه حاصل على الماجستير فى الدراسات والعلاقات الدولية.

من المهم الإشارة إلى أجواء وملامح مدينة «رام الله» تحديداً، لأنها أسَهمت بدرجة ما فى تشكيل شخصية ووعى «مروان البرغوثى» بإنفتاحها رغم ضيق الاحتلال، وهى مدينة لا يمكن تجاهل المرور بها، أو نسيان رؤيتها كما يظهر فى كتاب «برغوثى»

آخر هو الشاعر «مريد البرغوثى».. (رأيت رام الله) ويقول فيه:

«عجيبة رام الله متعددة الثقافات، متعددة الأوجُه، لم تكن مدينة ذكورية ولا متجهمة. دائماً سباقة إلى اللحاق بكل ترف جديد. فيها شاهدت الدبكة كأنى فى دير غسانة، فيها تعلمت التانجو منذ سنوات المراهقة. وفيها تعلمت لعبة البلياردو فى صالون «الأنقر». وفيها بدأت أحاول كتابة الشعر. وفيها نشأ اهتمامى بالفن السينمائى منذ الخمسينيات عبر برامج سينما «الوليد» و«دنيا» و«الجميل»، وفيها تعودت، على الاحتفال بالكريسماس ورأس السنة.

لم تلاحقنا عيون فضولية أبداً ونحن نذهب إلى مقهى وحديقة «ركب» شباناً وصبايا لتناول الشوكالامو والبيتش ملبا والميلك شيك والبنانا سبليت. فى ظلال أشجاره الجميلة وعلى أرضيته المفروشة بالحصى الأبيض. سهرنا مع أصدقائنا وأهالينا فى منتزه رام الله، ومنتزه البيرة ومنتزه نعوم، كنا نتعرف على ملامح بعض المشاهير الذى يتحلقون على الموائد الأنيقة فى فندق عودة وفندق حرب، يرتدون الطرابيش ويناقشون القضايا السياسية وهم يمسكون بخراطيم «الأرجيلة». رام الله كانت شديدة النظافة فى شوارعها ومطاعمها ومقاهيها ومنتزهاتها وكذلك مدينة البيرة، المدينة التوأم لرام الله، وفى رام الله عرفت المظاهرات للمرة الأولى فى حياتى، تظاهرنا ضد حلف بغداد. وتظاهر أهل القدس ونابلس وباقى المدن. هزنا خبر استشهاد الطالبة رجاء أبوعماشة فى تلك المظاهرات ونحن نرتدى الشورت. كنت أعرف أن "منيف" يخبئ المنشورات

السرية فى حذائه لينقلها من مكان إلى مكان دون أن يشك فيه أحد لأنه طفل. وكنا نتابع أخبار القبض على ابن عمنا بشير ونزور جارتنا فى عمارة اللفتاوى "أم بشير" لنواسيها ونسأل عن أخباره. تظاهرنا من أجل طرد جلوب باشا وتعريب الجيش الأردنى، ورقصنا طرباً عندما تم ذلك بالفعل نتيجة لتطورات سياسية لاحقة تابعنا صراعات الأحزاب: الشيوعى، والبعث، و«الإخوان المسلمون» على قدر أفهامنا كمراهقين. تابعنا الانتخابات التى جاءت بحكومة سليمان النابلسى. تلصصنا الاستماع إلى خطب جمال عبدالناصر من صوت العرب لأن الاستماع إلى صوت العرب، كان يعرض الشخص للشبهة وربما المساءلة. فى رام الله طربنا لقرار جمال عبدالناصر تأميم قناة السويس، وتابعنا أخبار بورسعيد وصمودها. فى رام الله رقصنا للوحدة بين سوريا ومصر وإعلان الجمهورية العربية المتحدة. وفيها بكينا يوم إعلان الانفصال، فيها دغدغتنا أحلام القوة بصواريخ القاهر والظافر، وفيها سمعنا لأول مرة بالقرارات «الاشتراكية» الصادرة فى مصر وأصبحنا، نحن طلاب المدارس الصغار، نتساءل عما يمكن أن يعنيه ذلك المصطلح».

....

....

فى تلك الأجواء التاريخية والحماسية عاش «مروان» شبابه ونضاله، وسط عائلة مترامية التواريخ والأطراف، فبالإضافة إلى «مروان» يوجد «مريد» و«مصطفى» و«حافظ»... «البرغوثى»

و«البرغوثى» الأول هو الشاعر الشهير والثانى ناشط سياسى ومدنى، والأخير صديقى منذ سنوات وهو كاتب ورئيس تحرير صحيفة «الحياة الجديدة» التى تصدر فى رام الله، سألته يوماً عن درجة القربى بينهم جميعاً قال إن الأقرب نسباً له «مريد»، وأن الصلة بين الجميع هى فى النسب للعائلة فقط ولا توجد قرابات مباشرة بين مشاهير «البرغوثى» إلا فيما ندر.

تحركَت حياة «مروان البرغوثى» منذ بدايتها سريعاً، كأنها تشبه أفكاره التى تصل سريعاً إلى هدفها، فقد تزامنت إنجازاته التعليمية التى انتهت بالماجستير واجادة الإنجليزية والعبرية مع كفاح تنظيمى بارز داخل كوادر حركة فتح، فعند بداية الانتفاضة الأولى تم إبعاده إلى جنوب لبنان بسبب أنشطته البارزة ضد الاحتلال الإسرائيلى، وعاد إلى رام الله إثر اتفاق «أوسلو» مع العلم أنه أبدى انتقاداً واضحاً لأوسلو.

ورغم أن «عرفات» لم يضعه على قائمة «فتح» إلا أنه نجح كمرشح مستقل فى عضوية أول مجلس تشريعى فلسطينى منتخب عن دائرة «رام الله». وكان معروفاً بمعارضته الشديدة للسلطة الفلسطينية خاصة فيما يتعلق بقضايا الحريات والديمقراطية، وقد أوضح فى مقابلة صحفية موقفه الأحدث بهذا الخصوص قائلاً: «أعتقد أنه بعد انطلاقة هذه الانتفاضة المجيدة - «يقصد الانتفاضة الثانية» - يجب إعادة النظر فى جملة من السلوكيات السياسية والتفاوضية والأمنية والإدارية والمالية فى السلطة الفلسطينية بما يحقق تعزيز الجبهة

الداخلية الفلسطينية، ويجب إعادة تشكيل السلطة من جديد بما يكفل حالة من القوة وتعزيز الموقف الوطني».

من المثير أن آراء «البرغوثي» كانت هي مطالب أمريكا من السلطة الفلسطينية بعد ذلك بشهور «!».

نعود إلى التذكير بأن آراء «مروان» كثيراً ما دفعته إلى الإصطدام بالسلطة بداية باستبعاد «عرفات» له من قائمة المرشحين للمجلس الوطني، وإلى حماس منظمة «حماس» للأخذ بثأر القبض الإسرائيلي عليه ربما بأكثر من حماس السلطة الفلسطينية! وليس ذلك بالأمر المستغرب، لأن «مروان البرغوثي» يحمل .. ليس كثيراً من «التناقضات».. ولكن «القدرات»، ومنها دوره البارز في تخفيف الإحتقان بين جميع الفصائل الفلسطينية - خاصة الإسلامية - وبين السلطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية، وربما جاء ذلك على خلفية علاقته الوطيدة بـ«جبريل الرجوب» رجل الأمن الفلسطيني الأول - وقتها ، لكن المؤكد أن دوره جاء بسبب علاقات الاحترام التي يحظى بها داخل التيار الإسلامي الفلسطيني، حيث إعتَبر أن اعتقال الأمن الفلسطيني لناشطين فلسطينيين أياً كان انتماؤهم الفكري والسياسي إساءة إلى نضال الشعب الفلسطيني، وكثيراً ما توسط للإفراج عن قادة لتلك التيارات الذين اعتقلتهم السلطة.

وغير بعيد عن تلك القدرات، العلاقات القوية التي يتمتع بها «البرغوثي» مع ممثلين لجميع تيارات اليسار الإسرائيلي المساند للسلام، لكنها علاقات تتوارى وتظهر - وإن كان لا يمكن تجاهلها -

بحسب تفجر حمامات الدم التى تسيل من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار فوق الأراضى المحتلة.

لكن الأوضح فى نهاية الأمر أن «مروان» كانت لديه أهداف محددة «عودة الأرض وأهلها» ووسائل واضحة متغيرة، فضلاً عن قناعات تزداد ثباتاً مع الأيام - بخاصة أيام الانتفاضة - ومنها ما يلى:

- الدور الأمريكى غير نزيه ولا يمكن الاطمئنان له، وإن كان لابد من راع لعملية السلام فليس سوى الحجر / «الانتفاضة».

- عرفات لا بديل له ولا يجرؤ أحد على أن يقول غير ذلك فى ظل الوضع الراهن. (وإن كان هذا الأمر لم يمنع «البرغوثى» من إبداء آراء منتقدة لأداء السلطة التى يتزعمها عرفات).

- إن العمل المسلح واقع فرضه الاحتلال لكنه ليس الوسيلة الوحيدة للحصول على الحقوق الفلسطينية، فالعمل السياسى وارد ومهم، إذا تم احترامه من الجانب الإسرائيلى.

بتلك المفاهيم الرئيسية التى أمكننى استنباطها من عشرات المداخلات والحوارات الخاصة بـ«البرغوثى» دخل شلال الانتفاضة الثانية، وإن كان «البرغوثى» مجرد فرد مشارك عبر «فتح» فى الانتفاضة الأولى، إلا أنه آثر أن يصبح محركاً رئيسياً فى الانتفاضة الثانية، وفى إطارها أعاد النظر فى بعض آرائه المرحلية وفقاً للواقع البغيض الذى فرضه الاحتلال، فبعد أن كان لا يؤيد على الإطلاق عمليات قتل المدنيين الإسرائيليين، أعلن عن مساندته لكل العمليات الاستشهادية، مؤكداً أن الانتفاضة لن تتوقف إلا

بخروج جميع المستوطنين وزوال الاحتلال، مشيراً إلى أن العمليات الاستشهادية رد فعل طبيعي ومشروع على جرائم الاحتلال.

لكن الواضح أن الغياب الفعلى لحركة «فتح» عن الانتفاضة الثانية وبداياتها هو ما شحذ خيال «البرغوثى»، فاهتدى إلى فكر جديد يطيل به عمرهُ وعمر نضاله، إذ رأى أن حركتى حماس والجهاد الإسلاميتين نشطتان فى جميع مجالات المقاومة الشعبية والعمليات الاستشهادية، كما قامت الجبهة الشعبية بإعادة تشكيل وتجميع جناحها العسكرى، وعاد رجالها مرة أخرى إلى ميدان المقاومة، وعلى الفور قام «البرغوثى» بإعادة تنظيم صفوف زملاء ورفقاء الانتفاضة الأولى، وخلال شهرين فقط من عمر الانتفاضة الثانية كان قد انتهى من تشكيل تنظيم «كتائب شهداء الأقصى»، وشكلت عملية تصفية الإرهابى الإسرائيلى البارز «بينامين مائير كاهانا» فى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠ تدشينا وعلامة بارزة دفعت بكتائب الأقصى إلى بؤرة الاهتمام الإعلامى العالمى، وبدا واضحاً أن تلك الكتائب تركز فى عملياتها على اصطياد جنود الاحتلال ومستوطنيه، ويمكنك الربط دون عناء بين أهداف كتائب الأقصى وبين شخصية «مروان البرغوثى» إذا ما تابعت تطور عملياتها، إذ تلاحظ أنها ليست نمطية ولا تتوقف عند آلية جامدة، لأن تلك الكتائب تطورت بتطور سياسة الإذلال والقهر التى مارستها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى، حيث انتقلت الكتائب إلى أسلوب مغاير لبدايتها واستراتيجيتها فى المقاومة، فاقتبست بصورة أو بأخرى أسلوب العمليات الاستشهادية

لحركتى «الجهاد» و«حماس»، كما أنها تراجعت عن الالتزام التاريخى لحركة «فتح» بعدم شن هجمات داخل الأراضى التى احتلت عام ١٩٤٨، وشنت الكتائب بالفعل عدداً من الهجمات داخل العمق الإسرائيلى.

وإن كان «البرغوثى» ينفى أى صلة تنظيمية له بكتائب شهداء الأقصى - فهذا طبيعى من رجل سياسة لا ينسيه التصفيق والخطب وشعاراتها التزامه وحدود دوره - إلا أنه يقول: «إن رجال تلك الكتائب ليسوا تشكيلاً عسكرياً تقليدياً، بل هم مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين استطاعوا تكوين مجموعة من الخلايا السرية ذات الفاعلية القوية.. وهم جيل جديد من المقاتلين الفلسطينيين استطاع بالرغم من الموارد والإمكانيات المحدودة جداً أن يكون فعالاً بشكل لافت، وهو ما يؤكد أن المقاومة المسلحة قد وصلت لنقطة اللاعودة بحيث لم يعد ممكناً اقتلاعها أو اجتثاثها».

.. ثم تطورت صورة علاقة «البرغوثى» بكتائب شهداء الأقصى مع وصول العدوان الإسرائيلى إلى أقصى درجات إذلاله للسلطة والشعب الفلسطينى بحصار عرفات فى «رام الله» ـ عام ٢٠٠٢ ـ ودفن مئات الجثث فى مذبحة ومقبرة «جنين»، فأصدرت كتائب شهداء الأقصى بياناً أشارت فيه بصورة غير مباشرة إلى قيادة «مروان البرغوثى» لها، قال البيان: «إن الأشهر الأخيرة وخاصة الأيام القليلة الماضية أثبتت أن شرفاء الشعب الفلسطينى وكتائب شهداء الأقصى بقيادة المقاتل مروان البرغوثى أصبحت تقف وحدها تقريباً فى مواجهة العدو».

وإن كان البيان يشير صراحة إلى قيادة «البرغوثى» لكتائب شهداء الأقصى إلا أنه لم يفصح عن سبب «الوحدة» التى يشعر بها أبطال الكتائب والحديث عن وقوفهم وحدهم فى مواجهة العدو، وإلا فأين كتائب «القسام، والجهاد الإسلامى»؟!. والواضح أن «شهداء الأقصى» كانوا يقصدون (الوحدة) التى عاشوها داخل حركة «فتح» وسلطتها (!) .

وبذكاء شديد ألمح البيان السابق إلى :«أن الشهامة والإقدام اللذين يتحلى بهما «البرغوثى» هما من نبع «أبو عمار» واعتزاز بصورة القائد التى يطمح إليها كل شبل على أرض فلسطين».

والحقيقة أن ما أبداه «ياسر عرفات» من زعامة درامية خلال اعتقاله فى «رام الله» جعلني أصدق - لأول مرة - العبارة التى وردت فى بيان كتائب شهداء الأقصى من أن هذا الشبل «مروان» من ذاك الأسد «أبوعمار»، فقبل اعتقال عرفات فى «رام الله» كان الشبه يتباعد بين «الشبل» و«الأسد»، لكن يبدو أن تلك التجربة صهرت الاثنين فصارا مشروع أسد واحد وإن كان ليس وحيداً، أو «أسداً» طوال الوقت!

بالعربية أصبحت الأحاديث عن خلافة «عرفات» تشبه تبادل التعازى والتهانى فى الأفراح والمآتم، نفس الكلام والسلام والتمثيل، «فعرفات» اذا سألته عن خليفته يحيلك إلى ميثاق منظمة التحرير والمجلس الوطنى، رغم أن خصومه المعلنين وغيرهم يحفظون قولاً مأثوراً يقول «إن عرفات لو عرف أنك ستخلفه ولو بعد ٥٠ عاماً سيكرهك الآن».

لكن «بالعبرية» جاء اعتقال «البرغوثى» أمرا مثيرا للاهتمام والجدل «داخل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية» مما يشير إلى ثقله السياسى وليس الحركى فحسب.

حيث طالب بعض قادة «الشاباك» -جهاز الأمن الاسرائيلى- ببناء شراكة مع «القادة الميدانيين لفتح وعلى رأسهم البرغوثى. وعدم محاولة هدم ما لا يمكن هدمه». وحذر هؤلاء القادة من أنه «إذا استمر تدهور الأوضاع، فلن نجد أمامنا قيادة عملية من نوعية البرغوثى، وإنما الشبان المتطرفون الذين يجيدون فقط، حمل السلاح وكراهية حقيقة وجود إسرائيل كدولة يمس جيشها بالشعب الفلسطينى ويذله».

ويبدو أن أسهُم الجناح الإسرائيلى المؤيد لفتح حوار مع «البرغوثى» تتراجع مع كل عملية استشهادية جديدة فى فلسطين ، وبخاصة تلك التى تقف وراءها «كتائب شهداء الأقصى». بدا ذلك التراجع جليّا عبر عملية الاعتقال التى تعرض لها البرغوثى فى يوم الاثنين «١٥/٤/٢٠٠٢» أثناء وجوده فى منزل القيادى الفتحاوى «زياد أبوعين» فى حى الطيرة برام الله، وقد اتهمت فدوى البرغوثى - زوجة مروان - عملاء الاحتلال بالوشاية بزوجها وتساءلت عن: «من دفعه إلى الحضور إلى رام الله، حيث إنه كان حريصاً على عدم الاتصال ولو بالهاتف».

اعترَفت سلطات الاحتلال بدور جواسيسها من الفلسطينيين فى الإيقاع بالبرغوثى قائلة «إن قوات إسرائيلية خاصة تعززها

الدبابات حاصرت المنزل بعد تلقيها معلومات استخباراتية عن مكان وجوده، وتم نشر ثلاثة أطواق محكمة حول المنزل، وأُغلق الحى كله وفرض حظر للتجول، وتم اعتقال البرغوثى وابن عمه أحمد البرغوثى إضافة إلى صاحب المنزل زياد أبوعين، وقد استسلم البرغوثى دون مقاومة وكان شرطه الوحيد هو عدم المساس بأسرة أبوعين.

والمثير أن «البرغوثى» كان قد اعترف فى حوار صحفى قبل شهور من اعتقاله على أيدى الإسرائيليين بوجود تقصير لدى الأجهزة الأمنية الفلسطينية فى ملاحقة العملاء والمتعاونين مع إسرائيل وقال: «مع الأسف لم تكن هناك متابعة لموضوع العملاء منذ إقامة السلطة الوطنية وبعد اندلاع الانتفاضة، كنا أمام خيارين، الأول: إما أن نتعامل مع الانتفاضة مباشرة ونواصل مواجهة العملاء، والثانى: أن نترك أمرهم للأجهزة الأمنية»، وبالفعل ترك «البرغوثى» الأمر للأجهزة الأمنية ليصل فى نهايته لقبض الإسرائيليين عليه.

لـ«البرغوثى» أربعة أبناء أكبرهم «القسام» الذى هدد بالقيام بعملية استشهادية فى حال المساس بوالده (جرى اعتقاله فى ديسمبر ٢٠٠٣)، ولا أعرف على وجه اليقين كيف يفكر «القسام مروان البرغوثى». لكن المؤكد أن الأجيال الجديدة فى الوطن العربى لم تعد تتحرك من - أو فى - فراغ، خاصة داخل الأراضى المحتلة، فـ«مروان البرغوثى» لم تكسر نكسة ١٩٦٧ وعيه ولا قلبه بصورة مباشرة مثل أجيال كثيرة من مناضلى ومثقفى النكسة الذين عاشوها جسداً لجسد، مروان من جيل آخر، تألم وتعلم وانتظر

الوقت المناسب ليتكلم، انتظر الانتفاضة، ليست الأولى ولكن الثانية ليبدأ نضاله الاكبر ، إنه من جيل يعرف كيف يقطع شهوة الكلام فى أى وقت - يريد أو - يراه مناسباً للصمت، جيل جديد من المناضلين الذين مارسوا كل شىء وضمنت لهم التجربة ألا يصابوا بفيروس ادعاء البطولات، لأن مجرد تنفسهم وسط الجماهير الغاضبة أو داخل المعتقل.. هو بحد ذاته بطولة، وليس من قبيل المصادفة أن يجيد «البرغوثى» الإنجليزية والعبرية ويطالع الأدب خاصة الرواية المصرية ويسجن ويتم اعتقاله ويسافر ويعود ويفاوض وينتفض، إنها أقدار وليست مصادفات تلك التى تصنع جيلاً جديداً يعبر مروان عن فكره قائلا: «إن المعركة طويلة جداً لأن الهدف ليس سهلاً فنحن نتحدث عن قضايا مقدسة، نتحدث عن إنهاء احتلال للأراضى الفلسطينية والسيادة على القدس وعن عودة اللاجئين». هكذا يفكر «البرغوثى» .. بهدوء وطُول عمر ونَفَس. والأمر متروك لك لتعرف.. هل أراد «عرفات» أن يجدد تاريخه بالصبر واللجوء للعناد بعد أن فشل التسامح فى إعادة اللاجئين.. هل أراد اللحاق بجيل جديد «سيقطع نفس» السلام والمفاوضات بالمراوغة والمفاوضة والمقاومة؟.. من الذى دفع الآخر للالتصاق بالناس.. بالانتفاضة.. بأعراس الشهداء التى لم تكن تخلو أبداً من «البرغوثى».. الواضح أن «البرغوثى» ؟.. كان بقدر ما يدفعهم للحماس يحتمئ بهم، الكفاءة فى العطاء والأخذ تضمن استمرار كل العلاقات والأهداف: الحب والخلود والثورة.

وربما كانت السياقات الجديدة التى دخلتها المأساة الفلسطينية، قدراً منتظراً لأفكار وقيادات جديدة.. فقصة «البرغوثى» بكل «الدراماتيكية» البادية فيها، تعتبر دلالة تدعو للتأمل، وبعيداً عن خيالات التآمر التى تنمو بشبق وحيوية داخل عقول الكسالى فقط، فإن «مروان البرغوثى» يبدو أنه يعرف جيداً الفرق ما بين «السلام» و«الاستسلام»، لأن العبرية التى يتقنها ومعسكر اليسار الإسرائيلى الذى يعرف أعضاءه عن قرب لم يمنعاه من العودة للكفاح المسلح والمقاومة، عندما تأكد بإدراكه من أن السلام الإسرائيلى مجرد مخطط متقن للإستسلام، وأتصور أن المستقبل - إن كان سيمر بوطننا العربى - سيكون لتلك الأفكار والعقول الجادة التى لم تمت قلوبها بعد، عقول تعرف الفروق بين الأشياء، لا تختلط فيها المفاهيم ولا تصاب بتصلب الشرايين، لا تملك وحدها الحقيقة والصواب ولا تدعى ذلك، تملك هدفاً مقدساً ووسائل بشرية، تعرف قَدَرَها وقدرتها، وإذا اختارت الاستشهاد فلأنه وسيلة وليس غاية.

طبيعى ألا يَسْلَم «البرغوثى» من الانتقاد، لأنه ليس سهلاً أن -تصنع شيئاً أو- تملك فكراً وعقلاً وقلباً ذا أبعاد متعددة ويتركك الناس والتاريخ تمضى فى هدوء لحال سبيلك، لأن الجميع أصبحوا باهتين، لا تميزهم لا الاسماء ولا الأفكار - ولا حتى المشاعر... متشابهين فى زمان متشابه ومشبوه نمضى، فمن حقنا ومن حق «مروان البرغوثى» أن نعايره بأبعاده ومهاراته المتعددة، نحن أصبحنا كائنات ذات بعد واحد، أصبحنا نشبه كثيراً حركة وصورة

الحيوانات الأسطورية، انقرضنا ونحن فوق الأرض، حياتنا.. أيامنا وكلامنا قصائد ركيكة لرثائنا، لن نحيا حتى وإن حيينا طوال العمر، نموت ونحن أحياء وستبقى كتائب شهداء الأقصى والقسام حتى وإن غابوا وغاب «البرغوثى» اليوم، فالمفاوض قد ينتهى دوره، لكن المُنتفض سيذكره الناس، و«مروان» يتمتع بالبعدين وأكثر، فى شخصه وسيرته، وأراه عزاء لكل أهل برج «الجوزاء» الذين يقال إنهم متعبُون ومعذِبون لأنفسهم وللآخرين بسبب شخصياتهم المتعددة..، كما أننى مدين باعتذار لـ«مروان» الذى لم أعرفه عن قرب إلا عندما هممت بالكتابة عنه، فقد كنت أنتقد وجهه المرهق وحلقه الجاف دائماً وهو يلهث من فضائية إلى أخرى، لم أعرف إجابة لسؤالى: أين يجد الوقت للعمل؟ إلا عندما طالعت جانباً من سيرته الذاتية.. قامته القصيرة وخطواته المتسارعة، كانتا تشيران دوماً إلى قلق يلازمنى ويلازمه كلما تأملت شاربه وشعره المهملين. لم أصدق لحظة أنه توتر ناتج عن كونه المطلوب الرئيسى للإسرائيليين فى الانتفاضة الثانية، حتى جاءت ليلة القبض عليه، طالعت سيرة حياته، فوجدت أن التوتر يليق به لأنه.. يحمل عقلاً مفاوضاً وقلباً منتفضاً!

## الفصل الرابع 4



# ايزافيتش

«حدثت تحولات،

واستجابت الوجوه، لكنها ليست صادقة، لا تقـول لك بصدق

- كالأسمنت - أنها تبدلت، وتغيرت»

# موت مقهى وشيخوخة جيل!

على مقاعدها القليلة، كان يلتقى مثقفو الأربعينيات الحالمون بالعدل، الساعون لتجديد الحياة فى الوطن، وعليها كان يلتقى مثقفو الستينيات الحالمون بالحرية، وفيها كتبت قصائد، وتوهجت قصص حب، ودارت معارك فكرية وأدبية وسياسية..

إنها مقهى «إيزافيتش» أشهر ملامح ميدان التحرير، التى تحولت الآن إلى معرض لبيع السيارات.

لسنا دراويش.. وليسوا شيوخا.. لكنهم أعمامنا الذين هم فى القلب!

كتبت سطورهم أروع ألوان الوعى على جدار الروح، وكانت أفكارهم نار العقل ونوره.

إنهم الذين صنعوا الأغانى، والليالى.. أفراحهم وأحزانهم ومدارسهم كانت المعتقلات والمقاهى، والحانات..

تلك المقاهى التى كانت «زرقاء اليمامة» شبعت بـ «الكعكة الحجرية»، وقدمتها قربانا لـ «عم جمعة»..

لا تخلو الساحة فى ذاكرة بلادنا وأماكنها - بالطبع - من الطبقية، حيث كانت «إيزافيتش» درجة فى سلم نهايته «لاباس»، و«ريش»

إنها «إيزافيتش» صفحة من تاريخ مأساته، إن من صنعوه مازال معظمهم يعيش بيننا، فلم نقدسهم، ولم نصبح مثلهم، فلم يعرفونا، وتاه نجل جديد للتاريخ بين الجمل الاعتراضية التى يشبهها جيلنا! مقهى، كانت بيتا ومأوى ونهرا اغتسلت على عتباته عقول وأفكار وصراعات بكل المقاسات.

التفاصيل كثيرة، والأسماء تحتار من منها تقف عنده وتتكئ عليه فى أيامنا العرجاء.. لذا قررت أن أترك الأسماء تتوهج عبر السياق.. أما فى شارع تاريخ هذا المقهى العتيد فلم أقابل أحدا وأسأله، إلا ويدلنى على الكاتب (الراحل) سيد خميس، وكأنه المتن وكل الحكايات الباقية.. إحالات!

كان عائدا لتوه من الكويت، بدأنا الليلة من النادى اليونانى، وانتهينا بالجريون من العاشرة مساء حتى الخامسة صباحا، والتى قبلها بنصف ساعة تألق فجأة، وتذكر «غالبا هلسا» فى «إيزافيتش» التى قال عنها: إنها فى الأصل اسم لعائلة يوغوسلافية من الصرب، وكانوا يسمونهم اليوغوسلاف البيض، ميولهم اشتراكية جاءوا إلى مصر، وافتتحوا بداية محل فول وطعمية، وامتد ليصبح المقهى الشهير الذى كان يحتل مكانه على ناصية سليمان باشا، وحتى نهاية مبنى عمر أفندى، مطلا على ميدان التحرير.

سيد خميس، وسيد حجاب، وإبراهيم فتحى، توقفوا جميعا عند تلك المسألة اليوغوسلافية البيضاء، وتوحدت رواياتهم حول «إيزافيتش» الكبير، الذى كان كلما اختفى فجأة يعرف المثقفون أن «تيتو» سوف

يزور مصر.. حيث كانت السلطات المصرية تتحفظ عليه خوفا على حياة «تيتو» الذى كان يزور مصر كثيرا فى تلك الفترة.

المقهى كان يطل على صفحة وفترة مهمة من تاريخ مصر، ويتذكر سيد خميس أن مقر الطليعة الوفدية كان قريبا من «إيزافيتش» فهم يسار الوفد، وشبابه، ويربط بين اختيار فؤاد سراج الدين للمقر، وبين المقهى!

أما أصحاب المقهى فكانا اثنين أشقاء يسكنان جاردن سيتى، الأكبر هو الأهم، والأكثر تواجدا، وتوددا للفنانين والمثقفين الذين ترددوا عبر أجيال على المقهى.

وعند تلك النقطة.. «الأصول».. كان لابد من الرجوع إلى المرجع الجميل الكاتب محمد عودة، الذى أكد أن أصحاب المقهى كانوا ثلاثة أشقاء، وليسوا اثنين، وعاد بنا إلى الأربعينيات، حيث كان اسمه ميدان الإسماعيلية «قبل التحرير»، وتذكر أن أكثر أيام أناقة المقهى كانت تلك الفترة الأربعينية، حيث كانت «إيزافيتش» بأسعارها المناسبة.. مناسبة لجيوب المثقفين الفقيرة، فضلا عن إمكانية «الشكك»، حيث رفض محمد عودة مصطلح «النوتة» حين استخدمته وقال: ماكنتش فيه نوتة أصلا.. وقال: إن المقهى فى تلك الفترة كانت شاهدا على موت نظام الملك فاروق، حيث مات فاروق - سياسياً حسب رؤية «عودة» - يوم ١١ فبراير عام ١٩٤٦م، يوم الاحتفال بعيد جلوسه، فقد اندلعت مظاهرات الطلبة ترفع لافتة: أين الغذاء والكساء يا ملك النساء؟!، قال: إن فاروق مات فى هذا اليوم،

وإن كان قد تم دفنه عقب ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. وتذكر ما قاله المؤرخ الفرنسى «جان لاكوتير» بأن الثورة المصرية الحقيقية بدأت فى الأربعينيات، وكانت هناك بداية أخرى عام ١٩٣٦م عندما بدأ أبناء الطبقتين الوسطى والفقيرة، فى دخول الكلية الحربية، فشكلوا الجناح العسكرى للثورة، وإن كان جناحها المدنى قد بدأ يتشكل أكثر خلال الأربعينيات، وشهدت «إيزافيتش» على رافد مهم جدا أسهم فى بلورة الثورة، وإرهاصاتها، وكانت مظاهرات ١٩٤٦م مملوءة بالعديد من زبائن «إيزافيتش».. فعلى كراسيها وموائدها التقت أرواح وأقلام سطرت صفحات جميلة فى كتاب الوطن.

الإطلالة المتسعة على الميدان الفسيح كانت أوضح ما فيه، خاصة خلال الأربعينيات، حيث بداية تسلل المثقفين ـ اليساريين بالطبع ـ فالمقهى كان أنيقا، زبائنه يدعون للفرجة على رقيهم، كما يتذكر الأستاذ عودة، وبخاصة ليلا عقب حفلات السينما، حيث كانت بعض الأسر الراقية تجرب طعم الأكلات الشعبية ـ فول وطعمية وخلافه ـ على «إيزافيتش» وبخصوص الأكلات والحلويات على هذا المقهى، فقد كان الجميع سعداء بالجمع بين الأكل وشرب الشاى والقهوة فى مكان واحد، لكن لا يتاح لك ذلك إلا بعد وجود علاقة مع عمال المقهى، أو آل «إيزافيتش»، وعندما تكون زبونا يصبح من حقك أن تتمتع بطلب الفول، والطعمية فيأتيان لك من المطعم الصغير الملحق بالمقهى، وأنت تجلس بداخل أناقته.

يتذكر عودة أن اماكن لقاء المثقفين وقتها كانت كثيرة «ريش»، بار

«ستيلا» لكن المرسى فى النهاية ـ كما يقول ـ كانت «إيزافيتش»، وكان أصحابه الثلاثة لهم مناقشات حامية، لكنها ودودة مع المثقفين اليساريين، حول الزعيم اليوغسلافى «تيتو»، الذين كانوا ـ آل «إيزافيتش» ـ على خلاف سياسى معه، ورغم ذلك كانوا معجبين بمقاومته للألمان ورفضه للهيمنة الروسية، رغم كون «تيتو» شيوعيا.. وهو بالفعل انشق بوضوح عن «استالين» فى تلك الفترة.

أما الأسماء فهى كثيرة تحتار.. كيف تختار؟ فاعذرونا إن نسينا أو أخطأنا.. كان سيد خميس، والأبنودى، وإبراهيم فتحى، وأمل دنقل، ويحيى الطاهر عبد الله، وسيد حجاب.. ومحمود يس، وبهاء طاهر، الذى قال عنه سيد خميس، أنه كان يجلس دائما مهذبا كالعادة، هادئا، خارج المقهى.. يطل على البراح ويسبح فى المدى.. قابلته ـ بهاء طاهر ـ منذ أيام قليلة عام ٢٠٠٠ فى مقهى ضيق اسمه «خزان أسوان بالزمالك»، لا يتسع لأكثر من عشرين شخصا، كان وحيدا بمفرده، سمع اسم «إيزافيتش».. تهللت ابتسامته، تذكر، لم يقل أكثر من: انظر كيف أجلس.. كانت يداه فوق ركبتيه، ممسكتين بالجريدة، لا يستطيع أن يستدير فى جلسته، وإلا اصطدم بزبون فى الكرسى الملاصق له.

ومن الأسماء فى «إيزافيتش» محمود المانسترلى ـ أحد الضباط الأحرار ـ وكان صديقا لعبد الناصر، وحسب رواية إبراهيم فتحى فإن الخواجة «إيزافيتش» كان شديد الاحترام له، وكان حريصا على تزويد ساندويتش الفول الخاص به بقطرات من زيت الزيتون من زجاجة خاصة توجد بجوار مكتبه.

«عيش السرايا» كان فاكهة المقهى، والوجبة الأشهر بعد الفول والطعمية.. ولا تعرف إن كانت المقهى ملحقا بمحل الفول، أم العكس، المهم أنك كنت تستطيع أن تطلب من هنا أو هناك ما تشاء، وتحاسب دفعة واحدة، أو لا تحاسب، ويروى سيد حجاب أن الجميع كانوا معتادين الاقتراض من جرسونات المقهى، أو يأخذون الطلبات منهم «على ما تفرج».. كان أشهرهم «عم جلال»، «وعم جمعة».. الذى كتب عنه عبد الرحمن الأبنودى واحدة من أول وأجمل قصائده.. «عم جمعة جرسون «قهوة إيزافيتش».. الأسمر.. أبو وش يبش يهش ينش الكلمة الوحشة برة العش.. واحد قهوة للأستاذ سيد.. ويقيد.. يا سلام يا سى عبد الرحمن.. للدنيا لسة جرح صعب محتاج لطبيب».. وكأن عم جمعة جرسون إيزافيتش كان يعرف أننى سأكلم الشاعر عبد الرحمن الأبنودى ليحدثنى عن المقهى الجميل فأجده فعلا محتاج إلى طبيب، بعد تلك السنوات المتعبة، وأنه تركنا «زهقانا» إلى الإسماعيلية.

أعود إلى سيد حجاب.. الذى قال: إن سيد خميس كان ولى أمر اثنين فى «إيزافيتش» هما سيد حجاب، والأبنودى.. وكان التبنى حقيقياً.. يتولى الإنفاق عليهما.. المصروف اليومى، والسجائر.. إلخ..

الأسماء كثيرة جدا، والمراحل أقل.. تلك التى ارتبطت بها «إيزافيتش».. أهمها حركة اعتصام الطلبة عام ١٩٧١م... ويرجعها صلاح عيسى إلى حلقتها الأولى «عام ١٩٦٨» تلك التى كانت تطالب

بمحاكمة المسئولين عن النكسة أما اعتصام «١٩٧١م» فكان مخاضه مع تولى السادات الحكم، وترديده الدائم أنه سيحسم أمر المعركة مع إسرائيل.. إن سلما أو حربا.. قبل نهاية عام ١٩٧١. وانتهت ١٩٧١ دون أى حسم، وبدأت ظاهرة مجلات الحائط الجامعية التى تطالب بحرب التحرير، وتعترض على حالة الاسترخاء التى كانت بداية سياسته.. وفى يوم ١٤ يناير عام ١٩٧١ ألقى السادات خطابا أرجع فيه سبب تأخر الحسم إلى حرب باكستان التى انشطرت عنها بنجلاديش فى ذلك الوقت!! وأثار ذلك المبرر غير المقنع طلبة الجامعة.. تظاهروا.. حاصرهم الأمن داخل أسوار الجامعة.. تسللوا إلى خارجها.. حول النصب التذكارى الذى كانت تطل عليه «إيزافيتش» وسط ميدان التحرير تجمعوا.. وعلى المقهى كان ينادى عليهم «أمل دنقل»..

أيها الواقفون على حافة المذبحة.. أشهروا الأسلحة.. سقط الموت.. وانفرط القلب كالمسبحة.. دقت الساعة المتعبة.. رفعت أمه الطيبة.. عينها (دفعته كعوب البنادق فى المركبة!).. «أمل» كان يقصد طلاب الاعتصام الذين تجاوزوا الألفين، كانت نقطة رصدهم وحوارهم «إيزافيتش».. يتذكر سيد خميس أن سيارات فارهة خصوصا المرسيدس، كانت تتوقف وسط «الكعكة الحجرية» أو ميدان التحرير ويفتح أصحابها شنطة السيارة وتخرج صناديق بها مئات الساندويتشات توزع على الطلاب تعاطفا ومودة!

ولا تخلو الساحة فى ذاكرة بلادنا وأماكنها ـ بالطبع ـ من الطبقية،

حيث كانت «إيزافيتش» درجة في سلم نهايته «لاباس»، و«ريش» فكانت الأقل تواضعا فى أسعارها «إن إيزافيتش تشبه المرحلة الزرقاء فى حياة بيكاسو، وهى المرحلة الأشد فقرا ماديا فى حياته»..

فترة النضج والازدهار لهذا المقهى كانت من عام ١٩٥٧م، حتى عام ١٩٧٤، تقريبا، شهدت ميلاد كثير من الأدباء، والفنانين، من جيل سابق مثل حسن سليمان، ولويس عوض، الذى أهدى كتابه «بلونولاند» إلى: «الفتيات الضاربات على الآلة الكاتبة، وإلى آكلات السندويتشات من «إيزافيتش».

بعد تلك المرحلة تسلم سيد خميس ـ كما يقول هو ـ المقهى دون أن يعرف أنه ملتقى لأعضاء الطليعة الوفدية، وحبه فى المكان أنه كان بلا إزعاج، مقهى بدون طاولة، ولا دومينو، أو راديو!

وكان ذلك غريبا على كل المقاهى، والإيقاع فيها مضبوط، حيث لم تكن تقدم «بيرة» ـ مثلا ـ كما كانت حالة «ريش».

أما عنوان كل الأسماء التى ذكرناها سابقا وغيرها فكان ـ تقريبا ـ مقهى «إيزافيتش».. يقول سيد خميس: أذكر أن صلاح جاهين حاول فى فترة ما أن يعيننى فى الأهرام، وحصل نوع من الاعتراض، فطلب من الدكتور عبد القادر حاتم أن أعمل فى مجلات وزارة الثقافة، وخلط الدكتور حاتم بين اسمى واسم سيد عبد العزيز خميس.. الذى تولى «روز اليوسف» فيما بعد.. وقال لجاهين.. يا أخى أنا عينته فى «المساء»، فقال له جاهين: لا.. دا واحد تانى..

وهنا ظل مكتب الدكتور حاتم يسأل عنى، ولم تكن هناك وسيلة للاتصال بى سوى تليفون «إيزافيتش»، فساعتها لم يكن هناك لعشرات من المثقفين تليفون ولا عنوان ثابت إلا هذا المقهى.. وأذكر أن الزبائن الطيبين غير المشاغبين دائما كانوا يجلسون خارج المقهى، مثل: بهاء طاهر، وحسن سليمان.. أما سامى السلامونى، فقد لازمنى فترة هناك، وكان يعمل فى مؤسسة الكهرباء، وفجأة انفعل، وقرر الاستقالة والتفرغ للنقد السينمائى، واتصل بمقر عمله وأبلغهم باستقالته أيضاً من تليفون «إيزافيتش»!!

وبعكس كل ما يعرفه جيلنا، فالفلوس لم تكن قليلة فى فترة ازدهار «إيزافيتش»، كانت كثيرة، والأسعار أرخص حسب روايات سيد خميس إبراهيم فتحى ـ مثلا ـ القهوة بـ ٥ قروش، والبيرة بـ ١٤ قرشا «وفين؟!» فى سميراميس.. فما بالك بقروش «إيزافيتش» التى لم تكن تزيد عن الخمسة بأى حال؟!

مقاهى القاهرة بشكل عام تحتاج إلى وقفات، فهى عالم فريد يجمع بين السحر والغموض.. من أين بدأت وإلى متى تمضى؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة.. إنها كائن إنسانى خاص جدا.. سجلت جدرانها وأدواتها ومريدوها عالما متكاملا يسير من الماضى إلى الحاضر، يمكنك من خلاله أن تعرف معالم الناس والوقت والوطن.. أما التحولات التى دهست الوطن فليس أصدق من المقاهى، وحكايات أهلها دليلا عليها.. وأعجبتنى تخريجة عم سيد، الواضح أن للمقهى والمثقف علاقة المقهى بالمثقفين.. بالطبقة الوسطى..

فجذور تلك الطبقة تعود إلى ناس إما تربوا فى أوروبا أو عادوا من بعثات ذهبت إليها، وبالتالى كانوا مرتبطين بالمقهى المطل على الشارع، كما الحال فى أوروبا، أن بذرة الاهتمام بمقهى «الفيشاوى»، نبتت من بين يدى طلبة الأزهر، الذين كانوا مولعين باختراع البن، والقهوة، فكانوا يذهبون إلى هناك فيما بين دروسهم، وبعيدا عن مشايخهم!

كانت البارات والمقاهى «فى الخمسينيات والستينيات، وأوائل السبعينيات الأماكن الأكثر دفئا، وقربا للمثقفين، ولكل فئة وطبقة مقهاها وعلى طيف «إيزافيتش» تذكرنا حلوانى «لوك»، وكان بجوار «ريش»، فالحلوى بأصناف قليلة منها كانت من الأطعمة المفضلة وبأسعار مهاودة فى «إيزافيتش».

كل من تذكروا هذا المقهى تذكروا بالطبع تلك الأيام، والتى من بين عناوينها:

- كان لكل مثقف مشروعه الخاص.
- طبعا كانت هناك خلافات وخناقات، «لكن الحب والاحترام كانا بجد، وكنا نحضن بعض بجد».
- كانت هناك أشياء تستحق أن نتحدث عنها، عكس تلك الأيام التى بلا طعم.

يقصدون أيامنا طبعا..

أعود إلى «الأبنودى».. الذى يحلّف عم جمعة «علشان كسوة سيدى عبد رحيم واحد «فورنو»/ واحد «فورنو» يا كامل.. تعرف دول؟

كانوا أسياد الأرض/ كانوا الكلمة/ كانوا الطول والعرض».

ومن بين هؤلاء واحد من كثرة ما سمعت عن ضجيجه تمنيت لو كنت قابلته، خصوصا على «إيزافيتش» التى كان أحد نجومها.. يحيى الطاهر عبد الله.. الذى حكى عنه رواد المقهى الذين التقيتهم الكثير، وإن كان ليس كل ما يعرف يقال، لكن ما يمكن أن يقال أن يحيى فى «إيزافيتش» كان يعتقد أن العالم منقسم.. أو يجب أن ينقسم إلى قسمين.. قسم يؤمن بعبقرية يحيى، وقسم آخر يؤمن بعبقرية يوسف إدريس.. ويوسف إدريس بالطبع هو الذى قدم «يحيى» بشكل طيب على صفحات مجلة «الكاتب» فكانت تلك بداية تألقه..

ومن قلق إلى قلق تنتقل عيون الحكايات فى «إيزافيتش» إلى الكاتب والروائى، والباحث الأردنى «غالب هلسا».. وأول مرّه شاهده فيها سيد خميس كانت على «إيزافيتش».. جاء إليه ومعه الشاعر والصحفى السودانى «جيلى عبد الرحمن»، وكان الأخير أيامها مسئول القسم الأدبى بجريدة «المساء».. يشبه الزنوج بأسنان فاقعة البياض.. بارزة.. متعب المظهر الخارجى دائما.. قال سيد خميس ـ تعالى أعرفك على كاتب «كويس»، فوجئت ـ يقول سيد ـ بواحد شكله «خواجاتى».. فى إيده الأعمال الكاملة لبرتراندراسل.. شعره ناعم.. وأى واحد بهذه الهيئة على طول يبقى برجوازى.. وكان هذا البرجوازى هو غالب هلسا.. كاتب ومترجم وقصاص ويعرف كثيرا من الجوانب الخافية فى الأدب والفكر العربى.. وله منهجه الفلسفى الخاص والواضح.. عرفته على «إيزافيتش» ومازلت ضد ما كان

سائدا عن أنه سكير، فقد كان البعض يقصد من إشاعة ذلك التغطية على قدراته الأخرى، وكانت له ندوته الأسبوعية فى منزله من حضورها سليمان فياض، وأبو المعاطى أبو النجا، وفاروق شوشة، ورجاء النقاش.. كنت أحب صحبته، وأشعر بعقدته، فقد كان يعتبر نفسه مصريا أكثر منه أردنيا.. وكل الأعمال التى كتبها خارج مصر كانت عن مصر، التى عاش بها ٢٥ عاما.. كان زميلا للملك حسين فى كلية فيكتوريا.. من الأردن ثم طرده إلى العراق، ومنها إلى القاهرة، فالعراق، ثم سوريا، عاش اعزب، وداهمه الاكتئاب فى آخر أيامه، ومات وحيدا فى الغربة، ودفن فى دمشق..

وعلى جدار «إيزافيتش» تجد كل ألوان طيف اليسار.. وطليعة الوفد.. ويتذكر إبراهيم فتحى أن كل التنظيمات السياسية تم حلها فى شهر مايو عام ١٩٦٥م، وتداخلت ساعتها الحدود بين الحركتين «الماركسية والناصرية»، فكل اليساريين فى تلك الفترة كانوا - تقريبا - يؤيدون عبد الناصر، ويضيف هو إلى الأسماء التى سبق ذكرها «محمد جاد»، زبونا على «إيزافيتش»، وعليها أيضا كانت فى تلك الفترة أحاديث حول غياب الديمقراطية، ودخل إبراهيم فتحى المعتقل فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٥م، وبعدها بـ ١٢ شهراً حل ضيوفا عليه: سيد خميس،.. والأبنودى، وسيد حجاب، ومحمد العزبى.. وآخرون.. وكلهم كانوا إما من رواد «إيزافيتش» أو «ريش».. أما المرفهين من مثقفى تلك الفترة فكانوا من زبائن «لاباس» ومنهم - مثلا - الشاعر العراقى عبد الوهاب البياتى، وبعض اللاجئين

العـرب.. وكـانـت «إيزافـيـتش» فـى منتــصـف طريق الأسـعـار بين «لاباس» و«ريش»، التى تم إرغامها على أن تغلق أبوابها يوم الجمعة فى فـتـرة القلق اليـسـارى الحكومى، التى توقف أمـامـهـا إبراهيم فتحى.

ومادام هـناك مثقفون فلابد أن تنتظر المخبرين، وكانت «إيزافيتش» من أجمل شاشات عرض سينما المخبرين.. يتذكر إبراهيم فتحى أن زبائن المقهى من أصحـاب السوابق السياسية كانوا يتابعون بكل ود وتندر تغيير ورديات المخبرين أمام «إيزافيتش»، وكـان عمل المخبرين المراقبين لأهل «إيزافيتش» سـهلا، لأنها كانت مكان «تجمع دائم»، وكتابة التقارير عنهم، كانت سهلة ولا تحتاج إلى مجهود.

وإذا حـاولت أن تستشف من كل الذكريات السابقة صورة حقيقية للمكان فليس أمامك سوى عنوان «الكفاف السـعيد» مناسـبا لتلك الأيام ولـ «إيزافيتش»، فـهذا المقهى لم يكن غنيا، وليس فقيرا، لكنه سـعيد.. يـطير فرحا وزخمـا.. لكن شيء مـا كان جوهريا وأساسيا عاشـته «إيزافيتش» وأهلها، لقى مصرعه وحتى جثته لم نعثر عليـها فى أيامنا الباهتة الآسنة!

ليلة اطلاعى على مـا خـفى عنى من تاريخ «ريش» فـعلت كـمـا كـان يفعل الأوائل، حين كانوا ينتقلون من «ريش» إلى «إيزافيتش».. إلى «على بابا»، إلى «اسـتـرا».. تنقل دائم فى قطار الليل والنـهـار، والساعات المتعبة..

تنقلت ومعى سيـد خـميس، وفى يده «الموبايل» من النادى اليونانى

إلى الجريون، ونسينا الأوديون، شاهدنا العشرات، من مثقفى وسط القاهرة.. منهم بعض الأسماء التى وردت فى حكاية «إيزافيتش»، كانت أسماؤهم فى الحكايات أجمل وأصدق وأوقع.. مياه كثيرة جرت فى النهر، وتحت الجسر، أشياء تاهت وتعطلت لغة الكلام.. كشفت أحاديث «إيزافيتش» لى كثيرا مما استعصى.. كيف كان مكان واحد يحتمل كل هذا الضجيج وتلك القامات كلها.. أسماء مرعبة فى وعيها، وتأثيرها، كيف يستوعبها مكان واحد؟.. اما الآن فتضيق بهم كل الأماكن.. فهل السبب فى الاماكن أم فى أفرادها؟!

بقى كثير من أصحاب تلك الأسماء حتى الآن.. خف البريق بالتأكيد.. وأصبحت الأسماء باهتة، والأحاديث ضيقة وباهتة.. ورغم كل ذلك «البَهَتَان» لم تعد الأماكن، رغم أنها كثيرة، تتسع لأحد.. كان أهل «إيزافيتش» يتنقلون منه إلى أشقائه من الأماكن ترفا، أما أهل الجريون وجيله فيتنقلون منه إلى غيره.. هربا!!

كثيرون ممن تحدثوا معى عن آيام «إيزافيتش» صمتوا عن كثير من الأحداث والأحاديث.. وإن ذكروها لى إلا أنهم طلبوا عدم النشر، احتراما للراحلين، ولإبداعهم.. حتى الموتى يخشونهم، حبا وتقديرا، رغم الغياب، اما الآن ورغم الحضور يمكنك أن تلتفت فى «الجريون» فتجد جثتك يتم تشريحها علانية على الطاولة، التى تليك لا رغبة فى أكل جثث الموتى، ولا جوعا، ولكن فراغاً، وهدرا للا مكانية!

كل الخناقات التى دارت عبر طاولات «إيزافيتش» لا يحب أهلها الكبار أن يتحدثوا عنها الآن.. رغم أن كثيراً منها معروف، عكس

خناقات مقاهى المثقفين الآن، التى تنتقل سريعا من مكان إلى مكان، ليس بفضل الموبايل، ولا الإنترنت، ولكن لأن السقف أصبح من «قش» يلتصق بالرءوس وأن القامات أصبحت قصيرة، ومجرد عود كبريت كفيل بإشعاله.

تعجبنى دائما رواية بديعة عنوانها «آلة الزمن»، للإنجليزى هـ. ج ويلز.. يدور موضوعها حول الحركة السابعة.. فالحركات الأصلية ست: فوق وتحت ويمين ويسار، وأمام وخلف، ولكن هناك حركة سابعة هى حركة الزمن فى مكان ما، فربما كان المكان نفسه من ألف سنة معبدا، ثم أصبح مسجدا.. «معبد الأقصر» ـ مثلا ـ يضم مسجد أبو الحجاج»،أشياء كثيرة يدور فيها وحولها الزمن، تلك الحركة أصبحت الآن أتأملها فوق المثقفين فى أماكنهم ومقاهيهم وحاناتهم ولا أدرى لماذا أصبحت أقدر الأماكن / المبانى أكثر؟ لأن حركة الزمن واتجاهاته واضحة فيها أكثر.. وهى صادقة معه أكثر.. حيث «إيزافيتش» اليسارى الحاد، الشاعر، تحول إلى شركة سياحية «برجوازية طبعا»، ولا يستطيع الحجر أن يدارى أثر الزمن فيه، ولا يتوارى، ولا يتورع عن البوح بالصدق، أما وجوه آل «إيزافيتش» وأشقائه فقد اختفى منها الكثير وبقى منها القليل، لكن لم تعد الوجوه فى صدق الأسمنت، حدثت تحولات واستجابت الوجوه، لكنها ليست صادقة، لا تقول لك بصدق الأسمنت أنها تبدلت، وتغيرت، لا تقول لك شيئا صادقا على الإطلاق، فهل للصدق علاقة بالتجربة.. نعلم أن إيزافيتش اختفت، فهل اختفت معها تجربتها؟ ولماذا يتوالد المخبرون

ولا تتوالد التجارب؟ لماذا يشبه المخبرون بعضهم بعضا، رغم حلول اللاسلكى واتحاده بالموبايل بدلا من البالطو والجرنال؟!

وعلى الجانب الآخر، لماذا لا يشبه الجريون إيزافيتش؟

أعود إلى التجربة التى يغيب بغيابها كل طعم، ولون، ومعنى.. وأسأل عنها..

هل حقا ماتت أم أنها حية، وتبحث عن تلك الـ «يد» التى كتب عنها أمل دنقل من «إيزافيتش»؟ «أدخلته «يد» الله فى التجربة!».. ربما!

# الفصل الخامس 5



# جميلة الجميلات

«في عصر
«بسماتيك»، كان أقصى ما استطاع أن يمس به
المرتزقة تماثيل رمسيس العظيمة مجرد.. «خربشات»،
وتبدل الزمن فأصبح للمرتزقة مخالب أقوى، وصارت
«خربشاتهم» عابرة للقارات، بعدما أصبحنا حريصين
على تقليم أظافرنا كل يوم!.»

# صخور «تذوب» وقلوب «لا تلين»

بلا «هوية» أمضى فى طريق على جانبيه ألغام فلا يمكن الانحراف عنه.. عن الطريق!

وأمامى اتجاه واحد يقودنى دائماً إلى كمائن - حتماً - سيطالبنى ضباط العالم الرابضون عليها بإبراز أوراقى.. مهما اهتزت هيبتهم وسقطت أبراج تجارتهم.. سلاحهم مصوب نحو قلبى وعقلى فلا فكاك.. ولا «جرين كارد» معى، ليس فى جيبى سوى صورة لمعبد «أبوسمبل» وفى قلبى تجلس جميلة الجميلات «نفرتارى».. فهل سيسمح لى السادة «المارينز» بالمرور؟ وهل سيعود رمسيس الثانى عملاقاً - كما هو فى تماثيله - فيعودون إلى جحورهم؟!.. أعرف - وتعرفون - الإجابة.. لا أجرؤ على البوح بها.. أمضى فى طريقى.. أحلم.. وأفيق عند أول كمين أبحث فى جيبى.. لا «جرين كارد».. أسألهم: هل تكفى صورة «أبوسمبل»؟! يقولون: لقد غرق! أقول: كان ذلك فى الستينيات وتم إنقاذه يقولون: نحن الذين أنقذناه (!)..

فى الزمن الذى وُلدت فيه الجبال معبدى «أبوسمبل» كانت الجبال هى الجبال الموجودة اليوم لكن لم تعد الرجال هى الرجال

أسـألهم ـ فى سرى طبـعاً ـ: وهل مـعنى ذلك أنه أصبح مملوكاً لكم؟..
يتركونى لفترة.. يتهامسـون فيما بينهم.. أسـمع أصواتاً عبـر أجهزة
اتصـالاتهم عبـارات وأسـمـاء غـريبـة على أذنى.. «عولمة».. «جـات» «بن
لادن».. «B2».. «باتريوت».. وعلى البعد أرى نوراً كجدائل شعـر أصفر
تتـدلى فوق بنيـان مرمـرى.. تذكرنى الجـدائل بالجدائل التى تحملـها
سـاكنة القلب.. والبنيـان هو البنيـان الذى أحـفظه عن ظهـر قلب!..
«أبوسمبل» أضىء من جديد.. وصـوت «رمسيس الثانى» رعد لا شبيه
له وسط رعد الـ«B2».. أحلم من جديد أن ينتبه السادة «المارينز» لى..
ليسمـحوا لى بالمرور أو يتركونى أعود إلى مـجدى الهارب.. فى زمن
الهــاربين من أنفـســهـم ومن الـ«اف. بى. اى» فـى «قندهار» أو فـى
شبرا.. لم يعد لنا إلا الحلم.. سلاح الهاربين فى زمن القتلة!

قـد أكـون مملاً.. لا يهـمنى.. لأنـى أعرف أنـه لا يهـمكم، فـمـاذا فى
العـالم لم يعـد مملاً.. لكن من رحـمـة الله تلك الطاقـات من النور التى
يفتـحها لنا بعد أن انسدت ـ حتى ـ طاقة النور التى ننتظرها فى ليلة
القدر! طاقة جديدة أثارت فى نفسـى الشجن ممسوحاً بطبقة رقيقة من
الفرحـة وأنـا أرى مـعبدى «أبوسـمـبل» عام ٢٠٠١ ينيـران فضـاء ليلنا
الطويل عبـر افتتـاح مـشروع الصـوت والضـوء هناك. افتتـاح المشروع
الضخم فتح باب الحنين والأنين والمقارنة بين زمنين.

فـفى الزمن الذى ولدت فـيه الجـبال مـعـبـدى «أبوسـمبل»، كـانت
الجبـال هـى الجبـال الموجـودة اليـوم لكن لم تعـد الرجـال هـى الرجـال،

ولم يعد موجوداً عقل مثل عقل «رمسيس عشاحب» المهندس العبقرى الذى بنى المعبدين..!

ما أبعد ـ وأتعس ـ المسافة بين جبال وكهوف ـ فى البر الغربى وجبل السلسلة وأبوسمبل ـ كانت تنير للقادمين الطريق.. وكهوف أصبحت الآن ملاذاً لقطاع الطريق. وكهوف أخرى ـ فى متاهة ـ تمشى على قدمين.. تركب الميكروباص ومترو الأنفاق ولا تعرف الطريق إلى أى طريق!

يستحق «أبوسمبل» كل هذا الشجن عند تذكر أيام صاحبه «سيد البنائين» رمسيس الثانى.. معبد لا نظير له ضخامة وروعة وإحكام بناء.. فهو الوحيد المنحوت تماماً فى الصخر..

اختاروا صخرة كبيرة نحتوا فيها وفى داخلها كل هذا البنيان الشامخ.. معبد كان مقصودا به ـ فى الظاهر ـ حب رمسيس الثانى لربه «رع حور آختى» ومن أجل والده «آمون» أقامه فى أرض «تاركنس» ـ الاسم القديم لأبو سمبل ـ لكن المقصود من المعبد بالطبع تأكيد القوة والمهابة عند أبعد نقاط حدود مصر جنوباً..

ضخامة تماثيل رمسيس الثانى الأربعة التى تصدرت واجهة المعبد كان مقصوداً تضخيمها.. ليثير الفزع فى قلب كل من تسول له نفسه ـ من الأعداء ـ الاقتراب من حدود مصر. وهى فكرة كانت أساسية فى ذهن كل الفراعنة العظام «سنوسرت الثالث» جعل حدود مصر عند «سمنة» جنوب الجندل الثانى وأقام سلسلة من القلاع والحصون على

طول النيل كنقاط دفاع ومراكز تجارية

«أبوسمبل» هو المعبد الوحيد من نوعه الذى تتوغل فيه أشعة الشمس فى أعماقه - ٦٠ متراً - لتصل فى النهاية إلى أعمق نقطة فيه «قدس الأقداس» فى يومين لا يتغيران كل عام فتضىء ثلاثة من التماثيل الأربعة المنحوتة بداخله وهى تماثيل «رع حور آختى» معبود هليوبوليس «وآمون» معبود طيبة وتمثال لرمسيس الثانى الذى ساوى نفسه بالآلهة. أما التمثال الرابع فهو لـ«بتاح» معبود منف ورب العالم السفلى وراعى الفنانين وهو يقع فى أقصى اليسار ولا تصله أشعة الشمس لأنه يجب أن يظل دوماً فى الظلام إلى الأبد تماماً مثل حاله فى العالم السفلى .

وتستمر ظاهرة تعامد الشمس نحو ٢٠ دقيقة فى يومى «٢٢ فبراير» و«٢٢ أكتوبر» من كل عام بعد إن كانت تدخله يومى «٢١ فبراير» و«٢١ أكتوبر» من كل عام قبل أن ينتقل المعبد من مكانه القديم مع مشروع إنقاذ آثار النوبة، وليس الإعجاز فقط فى انضباط دخول الشمس إلى عمق المعبد فى توقيت لا يتغير فى كل عام ولكن فى حركة تشبه حركة «الكاميرا» تحكم بها العبقرى مصمم المعبد فى حركة الشمس إذ تبدأ أشعتها - كل عام - فى هذين اليومين دخولها من قمة رأس تمثال «بتاح» آله «منف»، وتتحرك على أطراف أشعتها فى جلال حتى قدمى التمثال، ثم تنتقل إلى قدمى التمثال المجاور له وهكذا الحال مع بقية التماثيل فى مشهد العشرين دقيقة التى قد يمتد إلى ٢٤ دقيقة!

لم يقطع الأثريون بشكل حاسم سر اختيار هذين اليومين وهل هما يوافقان عيد ميلاده وعيد تتويجه أم يوافقان مناسبتين لا نعرفهما؟، ما نعرفه فقط أن الرائع «رمسيس عشاحب» المهندس العبقرى الذى بنى هذا المعبد أراد أن يجعل كل شىء ينطق جمالاً ودهشة.. الصخر الذى نحت منه المعبد والشمس التى جعلها تسترخى فى دلال داخل قلبه!

ولا خلاف على أن أروع وأبهى أجزاء هذا المعبد هو واجهته التى يتداخل فيها همس الصخر ودقة التقاسيم فى ضخامة صمت تعبيرات وجوه تماثيل رمسيس الثانى الأربعة، وتشكل تلك الواجه صرحا طوله ٣٣ متراً وعرضه ٣٨ متراً، ونُحتت هذه التماثيل فى كتلة من الحجر الرملى بشكل يتناسب مع وضعها فى التصميم العام، وبصورة تجسد ألوهية وقدسية ذلك الملك وحضوره الطاغى «ألوهية» وعسكرياً، وتؤكد ذلك الألقاب المنقوشة على أكتاف التماثيل مثل: شمس الحكام، حاكم الأرضين - كما هو مدون على التمثالين الجنوبيين -، ثم: محبوب آمون ومعبود آتون «أحد آلهة الشمس» على التمثالين الشماليين .

يبلغ ارتفاع هذه التماثيل قرابة عشرين متراً وتمثل الملك جالساً متزيناً برموز ملكية كاللحية المقدسة والتاج المزدوج، التفت حول ساقى كل تمثال تماثيل أصغر لأمه الملكة «تويا» وحبيبة قلبه - وقلبى بعد إذنه - «نفرتارى» وأبنائه «آمون خرحبشف» و«رعمسو» وبناته «نبتاوى»

و«نبت عنات» و«مريت آمون»، ويطل رمسيس الثانى من خلال تماثيله الأربعة على سر.. مصر الباقى «النيل» .

وتحمل تلك التماثيل نقوشاً تدل على أن زمن المرتزقة وقطاع الطريق - فى مصر أو عليها - قديم.. فالساق اليسرى للتمثال الجنوبى الثانى تحمل نقشاً دونه بالخط الأغريقى جنود الأغريق المرتزقة بالجيش المصرى الذى أرسله الملك «بسماتيك الثانى» من الأسرة السادسة والعشرين الصاوية خلال القرن السادس قبل الميلاد إلى بلاد النوبة، وهذا النقش واحد من عدة نقوش تركها الجنود المرتزقة من أغريق وكريتيين وساميين وغيرهم ممن كانوا أجراء فى جيوش العصور الفرعونية المتأخرة، وكان واضحاً أن كثيراً من أجزاء واجهة هذا المعبد كانت مدفونة فى الرمال كما توضح ذلك بعض رسوم - وصور الرحالة ولعل ذلك - وفق الدكتور زاهى حواس - هو ما يبرر عدم ذكر هذا المعبد ضمن عجائب الدنيا السبع.

ومن الطريف أنه مر بذلك المعبد عام ١٨٨٤ - أى بعد حملة بسماتيك بأكثر من ألفى عام - حملة الجيش المصرى المعروفة بحملة النيل العسكرية التى كانت تضم ضباطاً بريطانيين - أى عسكريين أجانب مثل مرتزقة حملة بسماتيك السابقة - وكانوا فى طريقهم نحو الجنوب للقضاء على ثورة المهدى فى السودان وتركت تلك الحملة على مشارف المعبد لوحة حجرية منقوشة - مثلما فعل أسلافهم المرتزقة - فضلاً عن تابوت أحد الضباط الإنجليز الذى لقى حتفه فى الطريق فى

أرض غريبة عنه.. ففى عصر «بسماتيك» كان أقصى ما استطاع أن يمس به المرتزقة تماثيل رمسيس العظيمة مجرد.. «خربشات» وتبدل الزمن فأصبح للمرتزقة مخالب أقوى وصارت «خربشاتهم» عابرة للقارات بعدما أصبحنا حريصين على تقليم أظافرنا كل يوم!.

ومن واجهة المعبد البهية تدخل إلى صالة أعمدته الكبرى فتجد طولها ٢٠ متراً وعرضها ١٨ متراً تتوسطها ٨ أعمدة مربعة عليها مناظر لرمسيس الثانى مع العديد من الآلهة المصرية، ويبلغ ارتفاع تلك الصالة ٩ أمتار على جانبيها تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى فى هيئة «أوزير» رب العالم الآخر، ولعل الرهبة التى أراد بها بانى المعبد أن تشع فى روح من يمر به مازالت موجودة حتى اليوم رغم عوادى الزمن التى أماتت أنواعاً من الرهبة وخلقت آخريات! تزدحم صالة المعبد بالعديد من المناظر التى تسجل المواقع الحربية الشهيرة التى خاضها رمسيس الثانى ومن أطرف المناظر التى تجدها داخل المعبد لوحة تصور رمسيس الثاني وهو يداعب حيوانه الأليف ـ ليس قطة أو كلبا كما قد تتصور ـ لا.. إنه مجرد أسد! فهو الملك القوى الذى يصبح الأسد قطاً بين أصابعه!

أما أهم مناظر الصالة ففوق جدارها الشمالى الذى يمثل معركة «قادش» التى دارت بين رمسيس الثانى وملك الحيثيين فى آسيا الصغرى وحاول القضاء على النفوذ المصرى فى سوريا ولبنان وقد خلدت قصيدة «نبتاؤور» تلك المعركة على أوراق البردى وتفيض

القصيدة تبتلاً من رمسيس الثاني وهو يناجي أباه «آمون» الذى استمع مناجاته وجاءه واعداً إياه بالمساعدة بعد أن كاد العدو يهزمه وتحولت الكارثة المتوقعة إلى معاهدة سلام مع الحيثيين، وفى المعبد أيضاً الصالة المستعرضة ١٢x١١ متراً وقد زينت أعمدتها مناظر رمسيس الثانى فى حضرة الآلهة.

ويرى الدكتور ثروت عكاشة فى موسوعته المهمة «تاريخ الفن.. العين تسمع والأذن ترى» أن «أبوسمبل» يتميز عن كل المبانى التى أقامها رمسيس الثانى برهافة الحس الفنى ورقة الإيقاع الهندسى المعروف عن معابد الأسرة الثامنة عشرة» إلا أن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى أن التصوير فى عهد الرعامسة - مع النحت - قد دخل مرحلة التدهور وإن كان التصوير قد حافظ على ألوانه الرائعة اللطيفة وعلى أناقة الأجسام ورشاقتها مع بقايا واقعية فن العمارنة فى تفصيلات الجسم خلال عهد سيتى الأول..

فى عهد رمسيس الثانى بدأت الأشكال تفقد ليونتها وطراوتها رغم احتفاظها بأناقتها كما فقدت نبض الحياة ولم تبق سوى الأكاديمية، ويضيف - عكاشة -: إن الفن الرعمسى يعيبه طابع الإهمال والتعجل الذى شجع التلقائية»، لكنه ينبه إلى أن تلك الملاحظات لا تنطبق تماماً على بداية عهد الأسرة التاسعة عشرة، أى عهد سيتى الأول ورمسيس الثانى «حوالى ١٣٠٠ ق. م» فقد ورثت هذه المدة التجارب الأخيرة للأسرة الثامنة عشرة فكان فنها مزيجاً من الدقة الأكاديمية والاتجاه

الحديث، وملاحظات الدكتور عكاشة لا تعنى السلب بقدر ما تعكس المستوى الفذ الذى بلغه الفن المصرى القديم إلى الحد الذى يتيح لأحد أن يبدى ملاحظات على أبوسمبل أو مقبرة نفرتارى ولعل هذا المستوى الفنى المصرى القديم هو الذى أصاب إبدا ع العمارة الحديثة المتمثل - مثلاً - فى برجى مركز التجارة بنيويورك بالقهر فإنهارا كمداً..-وسريعاً دون أن يخلد من بنوه أو.. من دمروه!

وعلى استحياء يقضى قرب معبد أبوسمبل الكبير - بنظرة فيها دلال ورقة - المعبد الصغير الذى بناه رمسيس الثانى لحبه الكبير، جميلة الجميلات زوجته «نفرتارى»، وكرسه لعبادة ربة الحب والجمال «حتحور» لتتلاقح مهابة الملك بعذوبة الحب، ولا تحتاج نقوشه ولا تماثيله لوصف فهى فوق الوصف مادام أمرها يتعلق بـ«نفرتارى» التى كأنها قدمت من السماء فرحلت إليها - سريعاً - فى ريعان شبابها، ولعل ذلك سبب محتمل لشدة تعلق رمسيس الثانى بها دون زوجاته الآخريات..

«نفرتارى»، «نفر» تعنى طيب أو.. حلو.. ومعنى الاسم كاملاً «أحلاهم» أو «أحسنهم» وكانت لها ألقاب كثيرة منها: «سيدة الصعيد والدلتا»، «سيدة كل الأراضى»، «عظيمة المديح»، «جميلة المحيا»، «ربة الفتنة»، «حلوة الحب»، «مليحة الوجه» أما أرق ألقابها فهو.. «الملكة التى من أجلها تشرق الشمس»..

إذا نزعت من على عينيك غشاوة نساء العالم الآن ودققت فى

ملامحها المصورة - خاصة فى مقبرتها التى تصيب بالهوس لفرط روعتها، لأيقنت بأنها - حقا - امرأة لا تليق الشمس إلا بها وحدها.. وآثارها تؤكد أنها كانت امرأة مخلوقة من الرقة والدقة.. رقة الحضور ودقة الملامح التى أجبرت رمسيس الثانى على أن تلاصق تماثيلها تماثيله خلال العشرين سنة الأولى من حكمه، وخلدها كقصيدة حب بمقبرتها النادرة فى وادى الملكات بالأقصر إلى جوار معبده الكبير بمعبدها الصغير فى أبوسمبل فى أروع مكان يمكن أن تشرق الشمس فيه لأجلها!

يضم معبدها لوحة شديدة الإيحاء وهى التى تصورها وقد وقفت بين المعبودتين ايزيس وحتحور تتوجانها وتمنحانها الحماية، ووصف «ريكس كيتنج» فى كتابه «النوبة ساعة الشفق» هذا المنظر قائلاً: «إن هذه الصورة رغم رزانتها وانعزالها لشديدة الاغراء!!» فما أجمل الإغراء الرزين ممزوجاً بدفء الشمس وهى ترتاح ناعمة على صدر النيل!» .

وبعد، ألا يستحق كل هذا الجمال والحب الذى كان ألا يموت؟.. سؤال ساذج بالطبع.. لكن الأهم أن هذا الحب والجمال تعرض للغرق مع بداية إقامة السد العالى فتجمع العالم لإنقاذ أبو سمبل - رغم كل الخلافات السياسية لكثير من الدول مع مصر - فى مشروع إنقاذ آثار النوبة الخالد. ثم تعرض مرة أخرى للإهمال حتى أحياه مشروع جديد بدأ الإعداد له منذ سنوات واحتفلنا بانتهائه «٢٠٠١» تضمن تأمينا

للمعبد وإنشاء مركز للزوار وإقامة حرم واضح المعالم للمعبد الذى كان مستباحاً دخوله.. وكل تلك الخطوات سترى نور الشمس صباحاً وشعاع مشروع الصوت والضوء ليلاً لتظل الشمس الحقيقية والصناعية تشرق لأجل «نفرتارى» دون انقطاع مما سيسهم فى المزيد من الإقبال على المعبدين وتم إعداد نص خاص مع عروض الصوت والضوء شارك فيه عدد من خبراء الآثار منهم الدكتور الراحل جمال مختار والدكتور جاب الله على جاب الله ويختلف عرض الصوت هناك عن غيره من العروض فى مصر من حيث روعة الابهار، وملخص العرض أن الملك رمسيس الثانى يحكى تاريخه وأمجاده وانتصاراته العسكرية وقصة بنائه للمعبدين فى أبوسمبل.. وقد جاء صوت وضوء أبوسمبل فى وقت اتسع فيه «ضوء» *الظلام* و«صوت» *القبح*.. وأتذكر الآن فكرة سمعتها كثيراً من الفنان التشكيلى فاروق حسنى - وزير الثقافة - وهى «إن تلك الصخور التى كانت تلد فناً على أيدى فنانى ونحاتى مصر القديمة العظماء»

ولعل أعظم تلك الولادات تمت من رحم تلك الصخرة الكبيرة التى كانت كتلة صماء نحتتها أيدى عمال كأنهم الشعراء كتبوا بأزاميلهم وأناملهم وعرقهم أجمل الأبيات.. فمعبدا أبوسمبل تم نحتهما بالكامل داخل تلك الصخرة الضخمة التى كانت ترسو على النيل هناك.. لم يدخلوا إلى صالتى المعبدين أى رسم أو تمثال أو جدار.. فمن الصخر نحتوا تلك التماثيل والصالات الداخلية دون أن يحملوا إلى المعبدين

أى شىء من خارجه سوى خيالهم المتجاوز للخيال!

...

...

كان فى العالم سادة - بحق - بنوا «أبوسمبل» وغيره من علامات المهابة وصفاء الذهن الذى أنضجته شهوة الإبداع.. لكن الوقت تبدل عبر آلاف السنين - التى مازال «أبوسمبل» شامخاً يرقب فى غموض - مصير أبناء سمبل.. أبناء الذين أقاموا تلك المنارات وهم فى متاهة وأصبح كل «ابن سمبل» منهم لا يعرف إجابة السؤال المهم: إلى أين؟ ولا السؤال الأهم: ما العمل؟ فى هذه الأيام التى أصبحت كطعم الماء والناس الذين من كثرة طلائهم لأنفسهم بالألوان أصبحوا بلا لون!.. «قلب» الصخر قبل آلاف السنين كان يذوب رقة تحت مطارق وأزاميل نحاتى «أبوسمبل» و«قلوبنا» التى هى من لحم ودم أصبحت تدمى وتجرح بقسوتها مشرط مداويها ولمسة محبيها، وكأنه لا يكفيها مصيرها المجهول فى زمن «بن لادن» الذى لن ينتهى بموته!.. وكل ما أخشاه أن أعيش أياماً أراها تقترب بعطنها النفّاذ يشاهد فيها الناس أفلاماً - ستصبح ساعتها قديمة - يستمعون فيها إلى كلمة.. «قلب» فيكشرون ويسألون بعضهم - فى نفس واحد:

- يعنى إيه قلب؟

# الفصل السادس 6



# انتحار الربيع في لندن

«ليس صحيحا أن
عيني سعاد لهما جفنان كما هو شائع.. والصحيح أنه
كانت لكل عين شفاه.. تبتسم»..

## سعاد حسنى

**لا** يقطع ملل هذا الكون إلا كـائنات مـثـل حـوائط المجد ..

نعلق فوقها كل آيات الفتنة والجمال ..

تكون الحيـاة بلا طعم فننظر إليه ،.. نبل ريقنا وقلبنا وشبقنا ..

فى زمن الوحل نرجم تلك الحوائط ..

نظل نقذفها بالطين أو التجاهل ..

ويظل الحائط يبتسم ..

يعطينا جمالا أكثر ..

تستفزنا قوته .. فنقسوا أكثر ..

ننتظر مزيدا من الابتسام يأتى من «لندن» فلا يأتى! ..

تأتى المفاجأة المتوقعة ..

يقفز الحائط فى الهواء ويلقى بنفسه على الأرض .

يتناثر قطعا ..

يبدو ان
صلابة
الابتسام
طوال الوقت
لا تحمى
سوى حائط
من زجاج
جميل!!.

فندرك بعد انتحاره أن صلابة الابتسام طوال الوقت كانت لا تحمى سوى حائط من زجاج جميل!!.

لم أستغرب أبدا موت سعاد حسني ـ أو انتحارها ـ لأنه كان النقطة الطبيعية التي كانت ستصل إليها بعد أن انطلقت سريعا من نقطتها الأولي :«الاكتئاب»، وفي بعض الأوطان والأزمان تسقط النجوم من سمائها، لكنهم كانوا يفرشون لها قلوب الناس وسائد لتستقر فوقها النجوم بكل راحة .. وتتسلمها أيدي الأحبة لتعيدها إلي سمائها من جديد .. لكننا وفي زماننا نخطط طوال الليل كيف نشطب النجوم من السماء ولو بقلم رصاص دون أن ندري على من نطلق الرصاص .. ونقذفها بكل ما نملك ولو بنبال الشائعات الرخيصة ونحاول أن نصطادها بأي «طعم عفن» .. قد يصل الطعم إلي النجم لكنه حتما لا يبلعه .. فكلب البحر لا يصبح أبدا قرشا!.

والمؤلم أن ما تعرضت له سعاد ليس وليد مرضها الأخير وإقامتها الطويلة في لندن .. لكنه مرض مزمن يتعرض له الوطن منذ عقود طويلة، وازداد استفحالا في السنوات العشرين الأخيرة، حيث كان الكثيرون قبل تلك السنوات مكدسين في مركب الأحلام التي اصطدمت بشعاب اشتراكية وانفتاحية كثيرة، فأوقفتها في مكانها فبدأنا نأكل بعضنا موفرين بذلك مجهودا حربيا كبيرا علي الأسماك التي كانت تتربص بنا!.

حياة سعاد ومسيرتها الإنسانية تجسد نموذج الفتاة المصرية التي تصدق في لحظة تطهر أو جنون أنها يمكن أن تكون نفسها ..

يصفق لها المشتهون بكل شبق في البداية، فتصدق أكثر وأكثر، لكنها تكتشف في وسط الطريق أنها لابد أن تظل ترقص فى وسط الدائرة ، وهم وحدهم الذين يحددون مساحتها ولونها. قد تبدأ بأن تكون فلاحة «حسن ونعيمة» لكنها لن تظل طويلا «زوزو» أو «أميرة حبي أنا» وحتي إن تساءلوا معها «علي من نطلق الرصاص» بعد آن أدخلوها «الكرنك» .. فسيظل هناك «الراعي» وهي فقط إحدى «النساء»!.

أترك لغيري الحديث بتفصيل أكثر عن مسيرة سعاد السينمائية وتنوع أدوارها، لكنني هنا سأحاول الاقتراب من تلك الإنسانة التي ذابت سريعا من فرط رقتها وشعبيتها وفقرها وشبقها وحبها للحياة والفن، ونسيت أنه كان لزاما عليها أن تحب أشياء أخرى إن أرادت أن تعيش بلا اكتئاب ولا شعر أبيض.

لا أزعم أنني ألتقيت بشكل مباشر بسعاد حسني لكنني شاهدتها مرتين - بالصدفة - مرة تدخل العمارة التي تسكن فيها بالزمالك، وأخرى وهي في سيارة مع ثلاث سيدات،. لكنني كنت أشعر أنني معزوم على رحلة إلى الجنة في كل مرة أطالع فيها وجهها في أي فيلم لها، خاصة بعد أن نضجت وتوهجت في نهاية الستينيات وكل السبعينيات .. ومنذ دخلت في اكتئابها الأخير الطويل حاولت أن أقرأ كل ما أتيح لي مما يتعلق بحياتها .. ولم أجد كثيرا جديدا يمكن أن يقرأ فكل الأحاديث عنها تنقل من بعضها .. فضلا عن أنها مقلة في أحاديثها وأعرف أن ذلك الأمر طبيعي مع كل من يفعل

نفسه بصدق، لأنه يشعر بأنه يقول كل شيء على الورق أو اللوحة أو الشاشة ولا يعرف أن يقول شيئا آخر غير ذلك.

توقفت خلال كل ما عرفته عن سعاد أمام تلك الملامح:

- طفولتها وحياتها الشخصية.
- صدمتها الخاصة قرب منتصف الستينيات.
- تقلباتها السينمائية عبر علاقاتها بأهل الفكر.
- اكتئابها المزمن و«ارتكاريا» صورتها في عيون الجماهير.
- عيونها، التي لخصت كل شيء في كل نساء العالم.
- انها أَبَت الا أن ترحل وسط ضباب لندن حيث رحل «عبدالحليم حافظ» حبها الذى كانت تليق به ويليق بها لكنه جاء فى حياة لاتعرف اللياقة، فلعل الموت يعرفها، ويكونان قد تزوجا هناك أرواحا فى سماء لندن!

لم يتحدث أحد عن نهايات طفولتها وبدايات نجوميتها على الإطلاق!، أفضل ممن صنعها بحق وهو «القديس الصعلوك» ـ كما أسماه يوسف الشريف في كتابه عنه .. «عبد الرحمن الخميسي»، ولعله كان يشعر بما سينتهي به حال سعاد بعد أكثر من أربعين عاما على اكتشافه لها حيث تساءل في حلقات نشرتها صحيفة السياسة الكويتية : «هل تراني أسأت إلى سعاد حين فتحت أمامها باب النجومية أم تراني أحسنت؟» لا تحتاج سعاد لأن تجيب على سؤاله لأنها أجابت منذ أيام برحيلها في لندن، أما نحن، وبكل فخر، القتلة المحترفون فنقول له: لقد أحسنت لأنك أهديتنا أخت القمر!.

يؤكد الخميسي علي أن سعاد كانت جزءا من ظروف اجتماعية قاسية عاشتها وتعيشها مصر باستمرار، وأنها عكست تلك الظروف في حياتيها العامة والخاصة على السواء .. وبالتفصيل أكثر يقول عن معرفته بها لأول مرة: «حدث أن الدكتور لويس عوض أنشأ جماعة «الجرامفون» في كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، وذلك إثر عودته نهاية الأربعينيات من بعثة دراسية في الخارج، وكان عبر تلك الجماعة اللقاء الأول بين الخميسي وشاب مثقف يدعي عبد المنعم حافظ يعمل بالتدريس وتوطدت بينهما الصداقة شهورا ثم دعاه بعد اختفائه لسنوات لزيارة منزله بحي شبرا، كان حافظ زوج والدة سعاد، حيث كانت قد ولدت في ٢٦ يناير «عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣» لأب ذي أصول شامية كان خطاطا شهيرا واسمه محمد حسني البابا واشتهر باسم «حسني الخطاط» وكان مولعا بأنواع من الفنون، وصديقا للعديد من أهل الفكر والفن والشيخ محمد رفعت، كانت سعاد واحدة من ١٧ أخا وأختا غير أشقاء، فقد أنجب والدها من زوجته الأولي ثمانية هم: خديجة، وسميرة، ونجاة، وعفاف، وعز الدين، ونبيل، وفاروق، وسامي، ثم تزوج «جوهرة» - أم سعاد - ورزق منها بثلاث هن كوثر وسعاد وصباح، ثم انفصل الأبوان فتركت سعاد بيت أبيها في منطقة ميدان الأوبرا لتعيش مع والدتها في شبرا بالقرب من ميدان الخازندار، وتزوجت الأم من مفتش التربية والتعليم عبد المنعم حافظ ويصف لنا الخميسي أول نظرة له على سعاد في ظل تلك الظروف الاجتماعية قائلا: كانت سعاد حين دخلت

إلى البيت واقفة لصق حوض مياه في الممر، تغسل بعض ملابسها، وتدعكها دعكا بيديها، وخصلات شعرها تغطي جبينها، وأجزاء من وجهها، ولم أكن أدري لحظتها أن جدائل شعرها المنسكبة تختزن وراءها تلك اللؤلؤة النادرة المثال.

ولا يبدو تنقل سعاد ما بين الأحياء والبيوت والبلاد غريبا على حياتها «من العتبة إلى شبرا، ومن القاهرة إلى لندن، ومن أب إلى زوج أم، ومن زوج إلى آخر ثم أخير، فضلا عن معاشرتها الطويلة لأنواع من القسوة التي قد تكون رجالا - أو غيرهم - والبداية كانت مع أبيها حسني الخطاط وصلافته الشديدة في معاملة بناته اللاتي كن أوراق بنكنوت.بالنسبة له. ويروي الخميسي طرائف سوداء عن ذلك حيث كان محمد حسني يسقى المطربة نجاة الصغيرة - ابنته من زوجة أخرى وأخت سعاد - «الخل» عنوة حتي يمنع نموها وتظل دوما نحيفة!. وبذلك تظل أمام جمهورها المعجب بصوتها الغض الرقيق المطربة الصغيرة الطفلة التي تقلد أم كلثوم في غنائها ووقفتها وحركتها وسكناتها. إذ كان يعتقد أنها لو بدت كبيرة السن وممتلئة فربما فقد الذهب الذي كانت تبيضه الدجاجة بعد كل حفلة تغنيها نجاة الصغيرة.

لم تكن سعاد بعيدة عن تلك الحياة - والأيام - «الخل» - ولا الخميسي القديس الماكر الذي التقطها لبطولة فيلم «حسن ونعيمة» مع بركات المخرج الذي رفضها باعتبارها وجها جديدا، لكن عناد الخميسي كاتب قصة وسيناريو الفيلم أجبر هنري بركات على

الموافقة وفتحت تلك الموافقة باباً لعالم من الشهرة والمجد اقتربت فيه سعاد من قلوب الناس ومن أشياء كثيرة أخرى، القلوب احتوتها، والأشياء الأخرى .. أحرقتها أحيانا كثيرة!.

الغريب أن الخميسي عندما التقط سعاد في بداية الأمر أرادها للمسرح، فكان قد كون فرقته المسرحية ويخرج مسرحية لشكسبير ويجري بروفاتها في مقر «جمعية أنصار التمثيل»، وأرادها لدور «أوفيليا»، وعهد بها إلي مدرس اللغة العربية - الذي أصبح ممثلا شهيرا - فيما بعد إبراهيم سعفان، أيضا كانت سعاد تريد لنفسها في البداية أن تصبح مغنية فقد اشتهرت كطفلة في البرنامج الشهير لبابا شارو وكانت - ربما للمرة الأولي - التي كتبت فيها أغنية خصيصا لطفلة وتقول كلماتها «أنا سعاد أخت القمر / بين العباد حسني اشتهر/ طولى شبر/ ووجهي بدر/ وصوتي سحر / وكلي بشر».

وسط تلك الطفولة بالغة القسوة المشحونة بهالات الفن وجدت سعاد فرصتها الأولى في السينما فاستغلتها، وحسبما صرحت في أحد حواراتها فيما بعد أنها أرادت أن تكون مغنية، لكنها كانت مجنونة بالسينما وكانت تحفظ العديد من الأدوار، وتنفعل معها، تبكي عندما تشاهد فاتن حمامة تتعرض لقلم ساخن في أحد أفلامها، وترجع سعاد إلى منزلها تقلد المشاهد والألم وتبكي ولم تكن تدري أن أمامها عشرات الأفلام والسنين فيما بعد ستتنفس فيها عن نفسها وطفولتها التعيسة رغم أنها لم ترد أن تبكي كثيرا،

وحاولت أن تضحك أكثر وتقفز في الهواء لعلها تنسى وتنسينا قسوة الأيام وتسرب الأحلام وبعد النجوم على اللمس أو الحب!.

العرض الأول لفيلم «حسن ونعيمة» تجاريا كان يوم ٥ مارس ١٩٥٩، وفي نفس العام قدم المخرج نفسه ـ بركات ـ فيلمه «دعاء الكروان» الذي عرض تجاريا لأول مرة في يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٥٩، ولم تعد سيدة الشاشة فاتن حمامة نجمة على الشاشة، بل بدأت سعاد تتقاسم معها جانبا من الشاشة يزداد ويختلف لسنوات طويلة.

لم تظهر سعاد في فراغ بل في إطار عام خلفيته قسوة ظروف اجتماعية تعرضت لها وفضاؤه كان ظهورها ـ كما يقول رجاء النقاش ـ «مع جيل جديد من الفنانين تولوا قيادة الذوق الفني العربي أواخر الخمسينيات وكان من هذا الجيل عبدالحليم حافظ، ومحمد الموجي، وكمال الطويل، وبليغ حمدي، وكانت هي النجمة النسائية الأولى بينهم، وكانوا جميعا نجوما احتلوا موقع القيادة بعد أم كلثوم وعبدالوهاب في الغناء، وجيل فاتن حمامة وماجدة في السينما، أيضا قدمت سعاد نموذجا جديدا في النجومية يعكس صورة للأدوار الشابة المبتعدة عن الميلودراما المكتسحة لفترة الخمسينيات وأفلام الاستعراض التي اشتهرت في نفس الفترة وظهرت سعاد مع جيل جديد فيه «نادية لطفي ، مديحة كامل ، نيللي، نجلاء فتحي، ميرفت أمين».

برعت سعاد ، دون منازعين أو منازعات ، في الوصول إلى أي

قلب منذ عبارتها الشهيرة الأولي لحرم فؤاد فى «حسن ونعيمة»: «طيب يا سي حسن » قال بركات ساعتها «البنت دي مستقبلها كبير جـــدا، الكلام واصل لقلبي من دون لف ولا دوران»، ثم إن أخطر أسلحتها ..« عيونها» التي قال عنها كامل الشناوي بكل خبث ودقة «ليس صحيحا أن عينى سعاد لهما جفنان كما هو شائع.. والصحيح أن لكل عين شفاها تبتسم» ما يهمني في وصف كامل الشناوي ليس أن الشفاه تبتسم .. المهم أنها شفاه .. كانت عينا سعاد تقولان أشياء كثيرة ربما مثل الحوار الذي تلقيه أو القبلة التي تتقاسمها علي الشاشة، وربما تقول لغتها الخاصة وهناك مشاهد شهيرة يعرفها الجميع لعيونها أشهرها في «الكرنك» لحظة دخول العسكري الضخم لاغتصابها فكانت لا تتكلم ولكن تتألم.. بعينيها تكاد ترجوه ألا يفعل، وفي نفس اللحظة بعينيها وشفتى عينيها تقول ـ هل هذا حلم أم حقيقة؟ لا تفعل، كذلك مشهد الساعي وهو يدخل اليها في مكتب خالد صفوان «كمال الشناوي.. نفس الفيلم» قبل إطلاق سراحها أنه وأحد أعوانه يطلبان منها العمل كمخبرة ويتلو عليها محاضرة عن ضرورة استفادتها والحفاظ على الثورة.. يقدم الساعي شرابا لها .. لا تحتسي شيئا .. بعينيها تقاوم الدموع وتكاد تستنجد بالساعي دون كلام قائلة: أنقذني !! ومشاهد لا تحصي في «على من نطلق الرصاص» و«موعد على العشاء» وهي تهمس باكية لأحمد زكي ..« شكري .. شكري .. شكري» .. عيناها فقط كانتا تقولان كل شيء.. والحقيقة أن قوة تعبيرها بعينيها كانت

تجعل الحوار في كثير من الأحيان ثانويا، ولا أنسي تعبيرات شفاه عينها في «زوجتي والكلب»، «السفيرة عزيزة»«الجوع»،.«عصفور من الشرق»، «موعد في البرج» طبعا!

وأكاد أجزم أن اختزان سعاد لكل تلك الطاقة التعبيرية في عيونها أتى من تراكم «جوانيتها» وانها كانت على عكس مكتشفها الخميسى المريض بداء «البوح» كانت كتومة ككل طفلة تربت على الكبت العاطفي والذهني، فضلا عن عدم مجارة ثقافة لسانها لعنفوان خيالها وخبرتها النفسية .

من مرحلة «حسن ونعيمة» الخمسينيات عرفت مرحلة الستينيات سعاد حسني في أدوار البنت الشقية وبنت الحتة وفتاة الأحلام وزعيمة الشلة والمتمردة - إلي حد ما - ، وكان ذلك متناسبا مع عمرها الذي بلغ وقتها ٢٦ أو ٢٧ عاما، أما بعدها بعشر سنوات منذ اختارت شكلا جديدا لأدوارها من خلال نظرة مختلفة لأدوار المرأة عبر تاريخ السينما المصرية .. وتصف ذلك ماجدة موريس في دراستها عنها «مطبوعات مهرجان القاهرة السينمائي ٢٢» عبر أفلامها «الحب الضائع» الأرملة التي تقع في حب زوج صديقتها ، «الحب الذي كان» المرأة التي ترفض الحياة مع من تكره، «على من نطلق الرصاص» المخدوعة من زوج فاسد ثم المهزومة من زوجها ومن مجتمع تنتمي إليه في الاختيار ، المقهورة من أخ متسلط في «غرباء»، ومن ابن العمدة والأعيان في «شفيقة ومتولي» تلك المرحلة

كما ـ بحق ـ كانت مرحلة البطلة المهزومة .. ومن حقكم أن تتأملوا معي وتتساءلوا هل كانت البطلة وحدها هي المهزومة؟!

المهم أن مرحلة السبعينيات شهدت بالنسبة لها انتصارين بعيدين عن تلك الانهزامية «خلي بالك من زوزو» الشهير، و«أميرة حبي أنا».

وخلال تلك الفترة أيضا كان «الكرنك» الذي لا جدال أن له علاقة قوية بالهزيمة الأقسى التي تعرضت لها في حياتها خلال الستينيات وتمثلت في مضايقات أخذت شكلا سياسيا في ظاهرها، لكن الهدف منها كان «شهوانيا» بحتا ويذكر يوسف الشريف في كتابه عن «الخميسى» أن الأخير انبرى للدفاع عن سعاد دون أن تطلب منه العون، حيث كرس الخميسى لأجل ذلك علاقاته الحميمة مع كامل الشناوي وإحسان عبد القدوس وشعراوي جمعه، وقد تكون سعاد أنقذت جسديا لكنها نفسيا ظلت تعاني حتى عالجت بعضا من الأمر في «الكرنك» الذي لاقى في جسدها وعقلها تجاوبا، مداواة للوجع بالوجع، وتعبيرا عن المسكوت عنه خلال الستينيات، فقالته بعيونها كأروع ما يكون خلال اغتصابها في السبعينيات .. على شاشة على بدرخان!

لا أتصور أن سعاد سعت لصلاح جاهين .. ومن قبله ومعه وبعده ـ إحسان عبد القدوس وكامل الشناوي وبليغ حمدي والخميسى وصلاح عبد الصبور وغيرهم من المثقفين، بل هم الذين تحلقوا حولها كفراشة تريد أن تحلق وتتمرد وتشعر بالسلوى والونس، ولعل ارتباطها ازداد بهؤلاء المثقفين بعدما تعرضت لمساومات سياسية

علي جسدها خلال الستينيات! لأنها أرادت أن تحتمى بهم ذهنيا لا سياسيا أو أمنيا، فهم رغم نفوذهم تعرض بعضهم لنفس المضايقات وليس لمساومات، لأن مساومتهم في هذا الأمر- الجسد- ليست بنفس الجمال، فضلا عن أن مساومة رجال ذلك الزمان كانت على العقل لا الجسد!، ولعلها أرادت أن تعالج هذا الشرخ بالذوبان في فريق أصبح الشرخ نفسه بالنسبة إليه قصيدة أو أغنية .. وجاء شرخ الستينيات ليكون مضافا لإنكسار طفولتها المريرة فاختارت أوسع البوابات رحابة.. «الفن» وكرست له كل حياتها بشهادة كل من اقترب منها سواء الأزواج، أو الذين شغلوا عقلها وقلبها وشغلتهم، ولعل تعدد علاقتها جاء لأنها اعتبرتها كلها علاقات ثانوية وعلاقتها الوحيدة كانت بالفن الذي كانت عبر شاشته وجهاً آخر غير كل الوجوه والحكايات التي سمعناها عنها، فهى عانت من مرارة وحسرات «المشتاقين» أو الذين صدقوا أن ما تفعله برغبتها في يوم يمكن أن تفعله برغبتهم في كل يوم !!؟

ويبدو التدرج في علاقة سعاد بالفيلم السياسي كانعكاس لذهنيتها وخبراتها الشخصية واضحا عبر تلك السلسلة «القاهرة٣٠» ١٩٦٦، «غروب وشروق» ١٩٧٠، «الاختيار» ١٩٧١، «الكرنك» ١٩٧٥، «على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥، .. فضلا عن أفلام أخرى تقترب من دائرة السياسة «الخوف» ١٩٧٢ ، «خللي بالك من زوزو» ١٩٧٢، «الناس والنيل» ١٩٧٢، «غرباء» ١٩٧٣، «شفيقة ومتولي» ١٩٧٨ ، ولا يمكن تجاهل أن سعاد قبل نهاية الستينيات تعلمت أكثر أن

تتوقف وأن تختار أدوارها ولو بمساعدة من الأصدقاء والمثقفين «والمخرجين»، كذلك فإنها مرت بثلاثة اكتشافات الأول «بركات، والثاني صلاح أبو سيف «القاهرة ٣٠، والزوجة الثانية» وكان معه في الفترة نفسها كمال الشيخ «غروب وشروق» . ويوسف شاهين، ثم الثالث مع علي بدرخان خاصة في «الكرنك» .

وعبر شهادات كثيرة للمقربين منها كانت تبدو «سوسو .. زوزو.. سعاد » ابنة حقيقية للحياة بكل نزقها وجنونها وضنها علي الورد بالربيع، لكنها كانت دائما تكسر كل تلك الحواجز أمام الفرح سواء على الشاشة أو في حياتها الخاصة، إلا أن جميع من اقتربوا منها ـ وحتى هي نفسها في أحد حواراتها الصحفية ـ يؤكدون ميلها للعزلة خاصة في السنوات العشر الأخيرة وقد تعددت الأسباب الظاهرية الفنية من فشل فيلميها الأخيرين «الدرجة الثالثة» و«الراعي والنساء»، إلا أن الساحة الفنية أصبحت طاردة لنجمات مثلها لا يجدن نفقات لعمليات «شد الوجه»، وقد يكون ذلك صحيحا إلي حد ما لكنه لا يكفي سببا أكيدا لولا استعداد داخلى عند سعاد وتراكم معاناتها، وربما اكتشافها لوهم كبير اسمه الفن وحده يكفي لتظل نجمة غنية قادرة علي دفع فواتير الغاز والكهرباء .. وأخيرا العلاج في لندن! أيضا كانت سعاد كما قال عنها علي بدرخان «موسوسة» جدا على فنها واهتمامها بكل تفاصيل الفيلم الذي تعمل فيه، وذلك جزء أساسي من شخصيتها لعل له علاقة بالرغبة في الكمال الذى يتطلع اليه ـ بخاصة ـ كل من لم يبلغه في طفولته، وتلك الرغبة كانت

سببا أكيدا في عزلتها وهلعها من أن يري الناس صورتها وقد زاد وزنها وابيضّ شعرها وهو هلع مشروع في زمن لا تحترم فيه الحقيقة وأمام ناس أدمنوا التجميل أو التزييف .. لا فرق!!

كانت سعاد أول طفلة يكتب لها أغنية خصيصا في الإذاعة .. وانطلقت بسرعة على يد بركات - عبد الرحمن الخميسى في الخمسينيات واصطدمت بتجربة قاسية في الستينيات لكنها قاومت واقتنعت بأن «الدنيا ربيع» وظلت وقتا مقتنعة وعرفت أشياء كثيرة أخذت «دماغها» إلي آفاق يظل التعلق بها مدعاة للاكتئاب .. لم تعرف إلا متأخرا أنه ممنوع الربيع في أوطاننا الخريفية، ولعلها كانت تعرف وكانت تلك كارثتها .. فالمعرفة طريق الموت .. طريق لا يعرفه إخواننا «الحمير » كما تنبأ صديقها الذي سبقها علي نفس الطريق صلاح جاهين في رباعيته :

«الدنيا أوده كبيرة للانتظار

فيها ابن آدم زيه زي الحمار

الهم واحد .. والملل مشترك

ومفيش حمار بيحاول الانتحار

عجبي ..»

# الفصل السابع 7



# «جرح بينده ..ع الحرية!»

«تعلمنا أن
المؤرخين يجب أن يكونوا أمواتا فلا يعقل أن
تأكل مثلى من نفس الطبق المسموم وتمتلك المناعة
لتكتب عنه.»!

مرسيل خليفة

في داخلي كل واحد منا .. مؤرخ وشهيد !

فنحن الذين نعيش الأيام .. وتقتلنا - أو نقتلها - الأيام ..

نشهد على كل شيء ولا نستطيع أن نقول كل شيء وتستشهد فينا كل يوم مئات الأشياء.

نرضى بأن نمشي على جثث ذكرياتنا ..

ونرتدي سترات كل صباح تحمل دماء « أو.. عرق» .. أحلامنا التي لا تتحقق ..

نعشق ونرمي السنين سعيدة بين يدي المحبوب وبنفس الود نلقيها بين يدي الذئاب ..

نغني لوطن لا نعرف معناه ونشرب من نيل لا نهتم بأنه أصبح ملوثا ..

نبني بالحجارة فيلات وناطحات سماء ونغني للحجارة الفلسطينية .. لذلك نصلح لأن نكون مؤرخين !.

نتابع أخبار أتوبيسات الفضاء وأقمارنا الصناعية

عندما غنى كثيرا جدا لفلسطين وأطفال الحجارة لجأ إلى أجمل الأشعار في دواوين الشعراء، ولم «يولول» أو يبكي أمام الشاشة، أو يرفع أصابعه بعلامة النصر أمام البنات اللاتي يربطن علم فلسطين حول خصورهن على واحدة ونص!

ونكتفى راضين بقدم واحدة تتشعبط» على باب أتوبيس ١٨ لذلك فنحن شهداء.

ظللت طوال سنين لا أعرفها لا أرى فرقا بينى وبين أى مؤرخ وشهيد، مثل ملايين غيرى من شهداء ومؤرخى الوطن الذين لم يحاربوا أو يصنعوا تاريخا .. حتى وقفت على باب هذا الفردوس .. خلف الباب صوت وتحت الصوت نور وليس بعد الباب .. باب .. بعده : مدى!

تعلمت منه كيف كان التاريخ وكيف تكون الشهادة ورائحة البرتقال.. كلمنى الصوت حتى الدمع .. وبللنى عطره حتى انتشيت .. وتناثرت دماء الشهداء الحقيقيين منه حتى شعرت بخجل استماعى إليه.

ظللت طوال الوقت لا أتصور أن صاحب هذا الصوت يجب أن يعيش .. تعودنا– فقط– على احترام الشهداء .. تعلمنا أن المؤرخين يجب أن يكونوا أمواتا فلا يعقل أن تأكل مثلى من نفس الطبق المسموم وتمتلك المناعة لتكتب عنه !

كنت أرى صورته .. لحيته ..، حضوره والآلاف يغنون حوله ككائن أسطورى، لا يهم أن أفهم كل ما يقول، المهم أن صوته وموسيقاه تلفحنى بمسّ إلهى يغير طعم الدم فى عروقى.

عند نهايات الطفولة كنت أستمع إليه لأشعر بأننى رجل يحمل بندقية، .. يطلقها على من؟ لم أكن أعرف! وعند نهايات رجولة فى زمن مخنث .. مطاطى أستمع إليه لأظل محتفظا ولو بمعنى الرصاص!

على دربه شممت رائحة الزعتر ولون الزيتون الذى أصبحت أكره غصنه الممتهن فى رسومات السلام!، وبصحبته تعلمت كيف تكون كراهية إسرائيل في دمي ودموعي وابتسامتي .. وأغنيتي!

«مرسيل خليفة» لم أكن أتصور أنى سأكبر يوما لأكتب عنه.. لذا لن أنجح مهما حاولت .. فمهما تقدم آباؤنا فى السن وعادوا إلى طفولتهم ينتظرون لمس أيدينا الكبيرة ، سيظلون هم الأشجع والأكبر .. وستظل لحية مرسيل غابة كثيفة ترهبنى وتغرينى بالدخول فيها لألوذ «بالسنديان» فى زمن «العوسج» وها أنا أفعل !

..

..

عندما رست الديناصورات المنهكة على شواطئ «أوسلو» و«مدريد» وغيرهما. عندما سال الماء بدلا من الدماء عبر شاشاتنا وصحفنا وأغانينا كان كثيرون يسألون متندرين وساخرين بابتسامات لزجة: ماذا سيغنى مرسيل خليفة بعد السلام؟.. وعندما عادت الدماء لتسيل علينا بدلا من الماء وقبل أن يكمل الساخرون «عليكم» بعد «السلام» لم يجد الكثيرون ما يشعرهم بقليل من الاحترام إلا أغانى «مرسيل»، وعادوا إلى «منتصب القامة أمشى/ مرفوع الهامة أمشى» لترفع هاماتهم ولو قليلا تحت القصف الإسرائيلى وتذكّروا «فى كفى قصفة زيتون/ وعلى كتفى نعشى» ليجدوا شيئا يقولونه حول نعوش الشهداء التى تبحث عن نعش !

«مرسيل خليفة» لأنه عاش وغنى بصدق فمن الصعوبة الكتابة عنه في هذا الزمن ! لأن الحروف لم تعد معتادة على أن ترتدى معنى، والقلم أصبحت تدميه الحقيقة!

لكننا سنلوذ بالقلب ليحكى، وبالأذن لتتذكر، و«بمرسيل» نفسه الذى لم أجد ما أقوله له عبر الهاتف قبل أيام .. تركته يتكلم .. فقط يتكلم.. كلام كالغناء .. نفس النبرة والحماس والبساطة التى تجلل ألحانه .. وعاد صوته لينقذنى من ورطتى ووجدت الكثير لأكتبه عنه.. أنقذنى كما قال محمود درويش عنه:« لقد أنقذت أغانى مرسيل خليفة القلب رافعة إياه على أجنحة بعيدا عن الدمار».

كان مرسيل طوال الخمس والعشرين سنة الماضية - بالفعل- يقود كثيراً من الناس إلى الموت- أو مع الموت- بالغناء، فهو موسيقى الثورة بلا منازع .. موسيقى حقيقى لا يحتاج إلى منصة ليخطب كما لا يحتاج الخبز للإعلان عن نفسه إلى الجائعين كما يقول درويش !

غنى للجنوب اللبنانى وكان يقول إن غناءه للجنوب يجعله يشعر بأن فلسطين قريبة إلى هذا الحد. وهو يطل على هذا الفردوس الموعود من بوابة الجنوب المحرر.

خلال الاحتلال الإسرائيلى للجنوب اللبنانى منع الإسرائيليون أغانيه وصادروها لأنهم يعرفون إنها ثورة .. ولأنهم - بالطبع-

استمعوا إليه وهو يشعل كلماته : «انهض للثورة والثار/ انهض كهبوب الإعصار/ وارشم أعداءك بالنار/ واهتف بالصوت الهدار/ الثورة نهج الأحرار/ من غزة من قدس العرب/ اخرج كالريح ولا تهب/ يا جيل النخوة والغضب /../ وامضى كالسيف إلى الظفر/ وابدأ ميلادك بالحجر» كان يغنيها لأطفال الحجارة، لكن الحجارة، ليست فى فلسطين وحدها إنها فى كل مكان على أرض الوطن الكبير، تكون باردة دائما لكن الدماء عندما تسيل عليها كأغنيات «مرسيل» تجعلها تحيا، .. تشتاق إلى الرمى فى وجه العدو .. من هنا منعوا أغانيه ورغم أنه «مارونى» إلا أنهم منعوا أغانيه خلال الحرب الأهلية اللبنانية فى الجزء المسيحى من لبنان، واتهموه ـ عام ٢٠٠٠ ـ بازدراء الأديان، لأنه غنى مقطعاً من قصيدة «أنا يوسف يا أبى» لمحمود درويش وخرج بريئا ودافع عنه مفتى لبنان والشيخ محمد حسن فضل الزعيم الروحى لحزب الله لأنه مطرب التصق بالإنسانية ..

...

...

فى قرية «امشيت» المعزولة عن بيروت بأربعين كيلو مترا ولد «مرسيل» وسط فقراء لا يعرفون وسائل المواصلات أو الاتصالات تقريبا .. لكن أهل تلك القرية كانوا دائما يشعرون بأن أبناءهم سيكون لهم حظ- وشأن- أفضل.

أمسك مرسيل بأول عود فى حياته وعمره ١٤ عاما، حمله معه وسافر إلى بيروت لدراسة الموسيقى فى معهد الكونسرفتوار الوطنى، لم يكن والده متحمسا لدراسته الموسيقى، لكن مرسيل أقنعه .. واقتنع الوالد على مضض ولم يتحمس له إلا بعد سنوات .. كان مولد مرسيل عام ١٩٥٠،.. ولم يكن والده يتوقع أن ابنه سيوحّد اللبنانيين بعد عشرين عاما من هذا التاريخ على موسيقاه ! وبخاصة مع اندلاع حرب مرعبة.

كان جد مرسيل صياد سمك ومنه استمع إلى أول غناء فى حياته .. كلها أغان كان تحن إلى البحر .. وقادنى مرسيل فى حوار عبر الهاتف إلى نقطة أعمق وقال: «أتذكر أن أول ما رسخ فى أذني هو الطنين فى الحقول .. التراتيل وصوت الأذان .. وأحسست منذ البداية بتواجد روح ثورية بداخلى .. رفضت منذ البداية أشياء موروثة فى منزلى ومدرستى لكنه كان رفضا لمفاهيم محددة» !

ولعل تلك النشأة البسيطة لها الأثر الأكبر فى شخصية مرسيل، بقميصه الأبسط على المسرح يغنى بلا ادعاء ويتصبب منه العرق ويتحدث بلا استعلاء، وتشعر أنه صديق قديم، منذ الكلمة الأولى يحدثك عن أشياء يعيشها معك وتستغرب تلك البساطة على نجم لكن فى موسيقاه تفسيراً لذلك، لأنها تكشف عن كائن مهموم بشىء لا يعرفه كثيرون اسمه بحجمه، «الإنسانية».

كان «العود» خلال دراسة مرسيل فى المعهد آلة محاطة بقدسية

بالغة وقوانين صارمة، لكنه استطاع مع زملاء له تطوير تلك القوانين بثقة بالغة، ولم تمض ٢٠ عاما على مولده حتى أصبح يدرس الموسيقى فى معهد الموسيقى ببيروت خلال السنوات من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٥، وأثناء ذلك بدأ يسطع نجمه على مهل عبر العديد من الحفلات مع فرقته التى كونها من زملاء له.. «فرقة الميادين».. إلى أن وضع كتابا مهما عن آلة العود وتقنيات جديدة فى التعامل معها أصدره عن منشورات مركز البحوث والتنمية فى بيروت.

استطاعت فرقة «الميادين» فى بداية السبعينات أن تحظى بشهرة واسعة، وأحدثت تأثيرا كبيرا فى تحديث الأغنية العربية التى تتشح بطابع ثورى يغنى للبندقية كما يغنى للعيون العسلية .. وقامت الفرقة بجولات فى أمريكا وعدد من البلدان العربية .. وتتكون الفرقة من عشرة عازفين معظمهم على «الكمان» و«الفلوت» والطبول ويصاحبهم مرسيل بعزفه الفذ على العود.

انتقل مرسيل إلى العيش فى بيروت بصفة نهائية فى توقيت بالغ الأثر فى حياته .. انتقل إليها والدماء تجرى فى شوارعها كماء المطر! عام ١٩٧٦، وأصوات القنابل توقظ سكانها بدلا من العصافير، وربما لأنه لم يستطع أن يحدث ثورة توقف هذا النزيف آثر صنع ثورة موسيقية تجمع الناس لعلهم يفيقون، وبالفعل استطاع أن يجمع بموسيقاه كل الفصائل المتناحرة فى بيروت وفى غيرها من البيروتات العربية!

ويتذكر مرسيل كيف كان يمضى لتسجيل أغنياته تحت القصف فى بيروت ويقول: ساعتها فقط كنت أشعر بأننى أفعل شيئا له قيمة ومعنى وأنه سيستمر ويصمد حتى النهاية.

التحامه بتلك الأحداث جعله أكثر التصاقا بالناس فدفعه ذلك إلى إبداع موسيقى تصل إليهم .. موسيقى تتكئ على الماضى إلا أنها تتطلع إلى ثورة تضمّد الكلمات التى يغنيها «قلبى قمر أحمر قلبى بستان/ فيه .. فيه العوسج فيه الريحان/ شفتاى سماء تمطر نارا حنيا/ حبا أحيان» ففى موسيقاه الأندلسيات وسيد درويش وبيتهوفن مع الاهتمام بألوان البوب .. إنه أراد صنع بناء موسيقى قومى يعيد ما تهدم مثل بيوت وشوارع تهدمت فى بيروت وغيرها، واهتم بشكل خاص بموسيقى سيد درويش وعاصى ومنصور الرحبانى لأن ثلاثتهم طرحوا أسئلة مهمة يحاول – هو– طوال الوقت الاجابة عنها: ماهى طبيعة الموسيقى؟ ما معناها؟ ويقول: إن لم تنجح أغانيّ فى الإجابة فأنا أتركها – أترك الإجابة– للأجيال القادمة.

لكن إجابة مرسيل تحمل قدرا كبيرا من التواضع، لأن موسيقاه وأغنياته قدمت بالفعل إجابات شافية لتلك الأسئلة وأكدت أن الموسيقى والشعر وكل شىء حقيقى جميل يمكن أن يصلح للناس، و«أن الليلة دوب» وغيرها تذوب ولن يذكرها أحد لكن الناس فى كل مكان يستطيعون الاستمتاع والفرح مع «ريتا» التى غنى لها مرسيل

أجمل أغانى الحب. حب حقيقى يقابل فيه المحبوب حبيبته ويكون جسدها فى دمه وليس بعيدا عنه ويصبح ساعتها نداء «هاتو .. لى حبيبى» شيئا مثيرا للرثاء.. يقول عن «ريتا»: «بين ريتا وعيونى بندقية/ والذى يعرف ريتا ينحنى ويصلى لإله فى العيون العسلية/ وأنا قبلت ريتا عندما كانت صغيرة/ وأنا أذكر كيف التصقت بى وغطت ساعدى أحلى ضفيرة /../ اسم ريتا كان عيدا فى فمى/ جسم ريتا كان عرسا فى دمى ../ وهى نامت فوق زندى سنتين/ وتعاهدنا على أجمل كأس/ واحترقنا فى نبيذ الشفتين/ وولدنا مرتين» وأنا أولد من جديد فى كل مرة أستمع فيها إلى تلك الأغنية .. قصيدة «محمود درويش» علمتنى ألا أنتظر الليالى أحلم بـ «ريتا» .. جعلتنى أشعر أن جسم ريتا هو الجسم الذى أعيش معه ليالى.. الآن وأقيم معه الأعراس فى دمى وسريرى .. أغنية جعلت المحبوبة شيئا ألمسه ولا أغنى له فقط. أستطيع أن أضع يدى عليها وأن أجعلها تنام على زندى.. نفكر معا .. ونحلم معا .. ونصدق أن مرسيل معه حق فى أن يحب تلك الأغنية كثيرا ويطلب من جمهوره فى كل حفل أن يصمت عندما يغنيها .. ويطالبه بمزيد من الصمت .. فالصمت فى حرم الجمال جمال !

...

...

لم يغن «مرسيل» لـ «ريتا» فقط بكل هذا الحب والوله لكنه غنى لكل

ما استطاع فى الحياة ولم أدرك ذلك إلا مؤخرا لأنه يصنع شيئا مركبا على بساطته، فهو على طريقة أحد أساتذته سيد درويش يعنى لبائعى الخضار وسائق الأجرة «الشوفيرية»: «شو بدك تمشى/ تا تمشى حتى ترد المصريات/ياعم بنحرق بنزين وزيت وكرامات/ والتعريفة ما بتنزاد» وغنى للبائعين فى أسواق الروبابكيا «أغنية البياعين»، أما الأطفال فقد تحبهم أكثر وهو يغنى لهم أو يترك تلميذته «أميمة» تقول لأحدهم «نامى نامى يا صغيرة/ تعى نامى ع الحصيرة»، أو : «يا معلمتى .. يا معلمتى ـ ايجه الديب .. ايجه تايا كلنا بنعمل شو»، وفى هذا الحوار الجميل بينه وبين طفل عن عسكرى مرور يقول له الطفل: يا بوليس الإشارة طفّى وضوّى الإشارة / صار لى مدة واقف هون ما عم توقف سيارة» ويرد عليه مرسيل : عسكرى المرور: يا ولد مش فاضى لك عندى عشرة دواليب»، ويستمر الحوار طريفا بسيطا ويقول له الطفل مادامت المسألة «تنفخ» فى الصفارة «جيبوا شرطة م الأولاد» ويعبر عسكرى المرور عن زهقه من الطفل فيقترح عليه أن يعين نفسه ضابطا ويرد العسكرى بأن جده ليس «بيه»لذلك لا يصلح ليكون ضابطا فيقول الطفل «يا بوليس الإشارة مادام معك بارودة يا قوص «أى تطلق النار» يا روح عيّين جدك بيه».. والأغنية جميلة طريفة بعض كلماتها باللهجة اللبنانية قد تبدو غير مفهومة عند كتابتها إلا أنها مفهومة جدا لكل العرب عند غناء مرسيل وهذا هو ما نجح فيه.

...

...

وقبل أن نمضى إلى مفصل مهم فى غناء موسيقى مرسيل- وأقصد فلسطين- نشير إلى أنه شارك وقدم العديد من الأعمال الغنائية المهمة منها «البحر».. «هروب اليسار».. «تتويج فى الحرم الفينيقى».. «ديوان الهرم» «اجلال إلى بعلبك» الذى قدمه عبر لحن أوركسترا لى منذ ١٨ عاما، وظهر فى ألبومه «فرح»، أما لحنه الرائع «البساط السحرى» فهو يتكون من ١٢ مقطوعة قدمها لفرقة كاركالا المسرحية الشهيرة ولهذا العمل أهميته الموسيقية البالغة ويراه بعض النقاد الموسيقيين ثورة جديدة فى الموسيقى العربية يعيد إلى البال عمله الرائع الذى ظهر منذ سنوات «حلم ليلة صيف».

وتدرك عبر مسيرة مرسيل أن الرقى لا يعنى التعقيد، وأن الأشياء الجميلة ليست محرمة على البسطاء.. فهو عندما غنى كثيرا جدا لفلسطين وأطفال الحجارة لجأ إلى أجمل الأشعار فى دواوين الشعراء، ولم «يولول» أو يبكى أمام الشاشة، أو يرفع أصابعه بعلامة النصر أمام البنات اللاتى يربطن علم فلسطين حول خصورهن على واحدة ونص!، لكنه قال - مثلا- «بالأخضر كفنّاه بالأحمر كفنّاه بالأبيض كفنّاه» ويذوب القلب معه ومع هذا الحنين الدرويشى وهو يهمس بأروع ما أحبُ «أحن إلى خبز أمى وقهوة أمى ولمسة أمى .. وتكبر فىّ الطفولة يوما على صدر أمى.. أعشق

عمرى لأنى إذا مت أخجل من دمع أمى.. خذينى أمى إذا عدت يوما وشاحا لهدبك وغطى عظامى بعشب تعمد بطهر كعبك .. وشدى وثاقى بخصلة شعرك .. بخيط يلوح فى ذيل ثوبك .. ضعينى إذا مارجعت وقودا فى تنور نارك .. وحبل غسيل على سطح دارك»، و«انهض للثورة و الثار» و«يابحرية»، و«أنى اخترتك يا وطنى حبا وطواعية/أنى اخترتك يا وطنى سرا وعلانية/ أنى اخترتك يا وطنى/ فليتنكر لى زمنى/ ما دمت ستذكرنى يا وطنى» أى وطن وأى فلسطين يغنى لها مرسيل إنها كل الأوطان.

وقد استطاع بالشعر أن يبسط الموسيقى وبالموسيقى أن يبسط الشعر واستطاع أن يحمى الموسيقى من الوشايات الحاقدة كما وصفه عبد الإله بلقزيز!

إن مرسيل استطاع أيضا أن يجعل المستمع لأغانيه يحترم قواعد الاستماع، وتشاهد فى حفلاته عشرات الآلاف فى بعض الأحيان يكونون «كورس» لأغنياته، عندما يطلب منهم، ويصمتون تماما عندما يشير إليهم بذلك وتستغرب كيف يستطيع أن يجمع هو عشرات الآلاف حول صوته فى مكان واحد ولا يستطيع ذلك عشرات من المفكرين والكتاب والزعماء!؟

وعبر الكثير من أعماله يبدو مرسيل من أشد المدافعين عن الثقافة بشكل عام، والشعر الحديث خاصة بصورة حضارية وبلا زيف، فهو غنى كثيرا للسياب ومحمود درويش وأدونيس وسعيد حقى.

سألته لماذا تتغير أشياء كثيرة ولا تتغير أنت؟ فقال: لأننى لستُ مناسبة وتمضى! وأنا لم أقدم أبدا موسيقى وأغانى لمناسبات سياسية أو لحدث، فالموسيقى والغناء ممارسة للحرية ودفاع شرس ضد السلطة .. أى سلطة، والأغنية سلاحى لمقاومة تدهور اللغة واستغلالها تحت كل الرايات .. لذلك أحاول دائما الهرب إلى الأمام بعيدا عن الطابور /القطيع.

وسُئل مرسيل مرة عن الثورة التى يتمناها فى الفن فقال: أطمح إلى ثورة تجمع بين الخبز والزهور .. العدل والحرية .. الحب والجمال..

وارتباط مرسيل وأغانيه بالشعر مقصود، ويأتى على خلفية ثقافية رفيعة يحصن بها نفسه من الموجات التجارية والسطحية وهو – كما يقول- يريد أن يدفع الناس بموسيقاه نحو الشعر .. ويتذكر أن كثيرين كانوا يطلبون منه فى بدايات عمله كأستاذ للعود أن يبسّط ما يكتبه- موسيقيا- لكنه كان يرفض إيمانا منه بأن الطلاب مدعوون للتعلم، وهو يرى أن الجمهور كذلك مدعو لتعلم تلك الأشعار الصعبة التى يختارها .. ومن يصدق أن يغنى الناس مع مرسيل كلمات السياب أو محمود درويش ؟ من يصدق ذلك يفرح ومن لا يصدق فليشاهد الآلاف يرددون خلفه تلك القصائد فى حفلاته !

ولعل مرسيل نجح كثيرا فى السير عبر درب صعب جدا تهابه الموسيقى العربية دائما، وأقصد درب العقل!، لأنها طوال الوقت كانت تجرى فقط خلف نداّهة القلب .. لكنه استطاع بموسيقاه أن

يضع بدايات حقيقية لطريق موسيقى عربى يجمع بين القلب والعقل!
وربما تكون تلك الأغنيات سببا مع غيرها فى إعادة العقل لنا، وإن كانت تلك الأغنيات أو المحاولات لا تسلم من غياب العقل، وهو ما عانى منه مرسيل نفسه عندما اتهموه بازدراء الأديان وكان مهددا بالحبس ثلاثة أعوام لأنه غنى قصيدة محمود درويش « أنا يوسف يا أبى»، وأختار مرسيل تلك القصيدة لا ليزدرى دينا ولكن لأنها تصف كفاح شاعر فى منفاه، وتوضح بصدق صورة الحياة فى الوطن العربى بشكل عام .. وكان من الصعب على الجميع تصديق تلك التهمة على مرسيل لأنه ظل طوال الوقت ملتزما بالثورة والحب بالكفاح والأحلام والناس، ولم يضع فنه فى ثقافة أو سياسة محددة، ودافع عن مرسيل مئات علماء الدين والمثقفين، وربما لم يكن بحاجة لدفاعهم فموسيقاه أبقى دفاع له وكلمات درويش التى أثارت الأزمة تقول- وهى من مجموعته «ورد أقل»- «أنا يوسف يا أبى يا أبى إخوتى لا يحبوننى، لا يريدوننى بينهم يا أبى/ يعتدون علىّ ويرموننى بالحصى والكلام/ يريدوننى أن أموت لكى يمدحونى/ وهم أوصدوا باب بيتك دونى/ وهم طردونى من الحقل/ هم سمموا عنبى يا أبى/ وهم حطموا لعبى يا أبى/ حين مرّ النسيم ولاعب شعرى غاروا وثاروا عليّ وثاروا عليك/ فماذا صنعت لهم يا أبى؟ الفراشات حطت على كتفى/ ومالت علي السنابل، والطير حلق فوق يدى/ فماذا فعلت أنا يا أبى/ ولماذا أنا؟ أنت سميتنى يوسفا، وهم

أوقعونى فى الجب/ واتهموا الذئب/ والذئب أرحم من إخوتى/ أبت!
هل جنيت على أحد عندما قلت أني: رأيت أحد عشر كوكبا
والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين».

وكانت التهمة أن مرسيل غنى مقطعا من القرآن، وقصدوا الكلمات الأخيرة من مقطوعة درويش، ولسنا فى مجال الدفاع عن استخدام مقاطع من آيات القرآن الكريم فى الشعر فذلك ثابت ولا يحتاج إلى تكرار لكن ما يحتاج تأملا هو تلك الحقيقة : إن الذئب قد يكون أرحم من إخوتى!

وبالمناسبة فإن مرسيل دخل معركة أخرى فى العام نفسه «٢٠٠٠» لا ناقة له فيها ولا جمل ولا أغنية، ولكن هذه المرة لحن! وأقصد تلحينه «ملحمة أناشيد سليمان» بمهرجان بعلبك الثقافى وفيها مقطع من نشيد الإنشاد!!

كتب كارل هيرفورت فى «دالاس اوبزفر» عن مرسيل خليفة أنه «بوب ديلان» الشرق الأوسط. ووصفه سكوت الاريك فى «بوسطن صنداى جلوب» أنه «بييت سيجر» لبنان»، وكتب عنه عدد كبير من النقاد فى أمريكا بالذات لأنه يذهب كثيراً فى رحلات غنائية إليها لكن مرسيل قال إنه لا يود أن يصل إلى الغرب عن طريق الغرب ويقصد أن استخدامه للآلات الغربية الموسيقية جاء لكسر الروتين وليس بحثا عن جائزة!

...

...

في أغاني مرسيل لا يوجد وقت للحزن ووقت آخر للفرح، بل كل الوقت للحزن والفرح معا .. للطلقة والقبلة .. للحجر والبشر .. للحياة والموت ..

لحظته الغنائية مشحونة بكل الأشياء .. وقليلون هم الذين ينجحون في الإمساك بها .. وأغانيه تمسك بها . رغم الجرح في الشارع وفي القلب،.. الجرح سجن وأغاني مرسيل تظل .. الحرية !، وموسيقاه هي الخبز والزهور .. وفي هذا الوقت الخانق الباهت .. ينسى المرء عقله .. وقلبه يعيش حزينا على قلبه الشهيد إن بقي فيه عقل ! حتى تأتي مثل تلك الأغاني فتنقذ القلب من الموت والكذب!

# الفصل الثامن 8



# قصة حياة حرم السيد «أحمد عبد الجواد»!

«كيف لا أحن إلى
«أمينة»، والأيام والأحلام والقلوب والأيدي والعيون
والأفكار والنساء لم تعد بعدها.. «أمينة»؟!».

# «أمينة لم تبق بعدك أمينة»

إن في لحظات فاصلة من حياة الناس، يصبح في داخل كل منهم «مؤرخ وشهيد»، يولد المؤرخ ليقص على التاريخ ما يُنسيه الألم، ويجعله قادراً على الاستمرار، ويموت الشهيد تحت سياط الأيام والآلام، ويظل سعيداً بالافتداء.. يفنى في حب الآخرين، ويحيون بشقائه، يتعلمون الحب من حب لا يقوله، ويشربون التضحية من همساته وصلواته التي تسرى في أيامهم دون حروف.

«أمينة» التي لا يعرفها أحد، هي «أمينة»، التي يعرفها الجميع، في داخل كل منا لمسة عطر، أو نقطة نور منها، هي نحن، هي «المؤرخ والشهيد»، وهي لم تنجب «فهمي»، «خديجة»، «عائشة».. «كمال»، أو كانت زوجة للسيد «أحمد عبدالجواد»، أو أمًّا لـ «ياسين» الذي لم تنجبه فحسب، ربما كانت أمًّا لآخرين لم تنجبهم، وإن حملت همومهم، وعانت طلقة ولادة نجاحهم، مالت تحت أقدام

فرحها دائماً مشوب بالتطير والقلق، قلق الخوف من المجهول والمسئولية عنه، فهي كانت تعتبر نفسها مسئولة حتى عن المجهول!

رجال تعطرها بالماء الساخن، ليعفروا نفس الأقدام بتراب شوارع الرزق والثورة والمومسات. تزيل التراب فى كل ليلة لتزرع المودة فى الأيام، تراب السكك لا يعمر طويلاً، لكن كل ذرة تراب مسحتها «أمينة» أو داست عليها، شهدت بأنها كانت «أمينة» فى حبها وأهدافها التى لم تقصدها.

من يقترب منها يدرك حكمة فى الكون لا يصل إليها إلا عارف، بعض حكم الأيام لا يكتبها أحد، يكتبها أناس يعبرون فى الأيام، تبقى مسيرتهم دون أن نعرف سيرتهم، ما أروع أن ندرك السيرة والمسيرة معاً لأحد هؤلاء الناس.

وفى «الثلاثية» المدهشة التى كتبها الأديب الكبير نجيب محفوظ محاولة فريدة لفعل ذلك، فقد أمسك بخيط السحر الذى يربط السيرة بالمسيرة، فنقش على جدار ذاكرتنا منمنمات لا تحتاج إلى روح لتحيا، ولا إلى كلمات لتنطق، هى فى حد ذاتها روح وحياة، نور ونهار، ثورة ١٩١٩، وأجمل قصص الحب، وعنفوان العقل والدجل والجهل.

ثلاثية «بين القصرين»، «قصر الشوق»، «السكرية»، لا يمكن الإلمام بها، ومن ذا يجرؤ على الإلمام بالأيام والأحلام والأوهام.. معاً؟!.. لا أحد.. إلا قليلون فى الدنيا، وشخصية واحدة فى الثلاثية، لم تعد الشخصية ولا صانعها فى حاجة إلى شهادة جديدة، نحن الذين فى حاجة لشهادة بأن لنا صلة بتلك الشخصية، التى وُلدت كل حياة الثلاثية من رعايتها، ونمت حتى ما شاء لها النمو والحب والمجون والثورة.

كانت «أمينة» محور «الثلاثية» بلا منازع، فلا سلطة ولا علم بقادرين على صنع ما صنعته «أمينة»، كانت تملك الحب، ومنه يولد كل شيء، وكل ما عداها يملك على الأكثر واحداً فقط من كل شيء، لم تنظر إلى ما في أيديهم، لم تنازع أحداً سلطة ولا قوة ولا علماً، الجميع هم الذين عاشوا من خير يتدفق بين أصابعها لولاه لما بقوا. ولما بقينا.

...

...

...

لن أتحدث فيما يلي عن ثلاثية نجيب محفوظ، فقط سأنقل نظرة طائر تعب من التحليق فوقها، ولم يجد حضناً أدفأ ليحط فيه، ينام قليلاً ليستأنف الطيران أو المتاهة.. لا فرق.

إنه حضن أم مثل ملايين الأمهات، لست من المحبين لتفسير بعض المعاني لمعانٍ أخرى - يتصورونها - أوسع وأهم، كأن تكون «أمينة» هي مصر، أو الوطن، فبعد أن استرحت في دفء حضنها لأيام ثلاثة - قرأت فيها «الثلاثية» من جديد - استغنيت حتى عن الوطن، كانت هي أفضل منه، فهي في يدي وقلبي، وهو لم يعد هو، لا تحتاج «أمينة» لأن تشبهها بأحد، ولا حتى بالوطن، ليته هو يكون في مثل حنانها.

أتوقف فقط عند «أمينة»، الروح والجسد اللذين تبدأ بهما «الثلاثية»،

«أمينة» هى المبتدأ والخبر، سماء «الثلاثية» وأرضها، وما طار طير وارتفع - فى الثلاثية أو فى غيرها - إلا كما طار وقع فى حضن «أمينة» كما وقعت أنا.

لم يصف نجيب محفوظ «أمينة» كثيراً.. فهى فوق الوصف، رغم مهارته وقدرته الفذة على ذلك، بل ترك القارئ يصفها لنفسه بنفسه، فقط نقل صفحات من حياتها بإحكام وشاعرية لا نظير لهما.

ظلمنا «أمينة» كثيراً فى أفلامنا وحياتنا وتحليلاتنا، حيث أظهرناها بائسة طوال الوقت، ساذجة، أو كما قال عنها ابنها «كمال»: «أمينة هى الرقة الجاهلة».

لم تكن أبداً بهذا الضعف الذى قد يتصوره البعض، فأحياناً يكون الغضب قلة حيلة، ودائماً يكون الصبر.. أقوى حيلة.

من هنا كان ضعف السيد «أحمد عبدالجواد»، على عكس ما يتبدى من مظهره وصوته و«شخطه» و«شتائمه» فى الجميع داخل البيت - وأحياناً - خارجه.

ومن هنا أيضاً جاءت قوة «أمينة»، فهى أرضت غرور الرجال - زوجها ونحن - بمظهرها المطحون، المنكسر، الضعيف، لكن حقيقتها كانت على العكس من ذلك، فتحت الجلد والصوت الضعيف تستيقظ دوماً ولا تنام روحها المشحونة بالعطاء، وسر شخصيتها الذى اسمه: «الواجب».

كان السيد «أحمد عبدالجواد» يشعر بهذا السر خارج البيت فقط، فجاء سلوكه هناك طبيعياً محبوباً من الجميع، إلا أنه كان ينسى

ذلك داخل البيت، ولم يجد علاجاً لهذا النسيان إلا بالكثير من الاستعراض، والصوت العالى الخالى كثيراً من المعانى.

إن «اللين» الذى تحلت به «أمينة» طوال عمرها كان أفضل وسيلة ساعدتها على أداء واجبها، لذلك لم ينازعها أحد سلطتها داخل البيت، وإن تصوروا أنهم سرقوها منها فى خارجه.

«الواجب» كلمة ومعنى دخلت به بيت السيد «أحمد عبدالجواد» طفلة، ـ وزوجة ثانية فى الرابعة عشرة من عمرها ـ وخرج هو من الدنيا ومن البيت معززاً مكرماً ـ بعد خمسين عاماً من الزواج بأمينة ـ بفضل هذا «الواجب»، وإن كانت تلك الكلمة لم ترد على لسانها قط سوى فى «السكرية» بعد أن أسلم السيد «أحمد عبدالجواد» روحه، دون أن يقدر على نطق الشهادتين فنابت عنه فى ذلك وطلبت من ابنها «كمال» الخروج من الحجرة قائلة: «دعنى أقم بالواجب الأخير نحو أبيك».

كانت طوال حياتها تتحرك بدافع من هذا السر / الواجب، أو المسئولية، حتى فى آخر أيامها، عندما أصبحت تعيش فى بحيرة هادئة من الأحزان بوفاة ابنها «فهمى»، ثم محنة ابنتيها «عائشة» و«خديجة»، وإلى وفاة سيدها «أحمد عبدالجواد» فتمنت فى «مونولوج» يفطر القلب: «ليت الذين حولى يبرأون من حزنهم حتى لا يشغلنى شاغل عن واجب الحزن العميق».!

ولا تحتاج تلك الإشارات إلى تعليق، ربما كان الأوفق أن نعود سريعاً إلى البداية.

في بيت السيد «أحمد عبدالجواد» تبدأ أحداث «الثلاثية» ولا أجمل من أمينة بطلة لتلك البداية، كانت في الأربعين، متوسطة القامة، تبدو كالنحيفة، ولكن جسمها بض ممتلئ في حدوده الضيقة، - ويكمل «محفوظ» الوصف - : «وجهها مائل إلى الطول، الجبين دقيق القسمات، ذو عينين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلاً عند فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي».

ولا يعود محفوظ إلى هذا الوصف أبداً ولا «الثلاثية» إلا عندما يشيخ الوجه، ويحدودب الظهر، ويدب الشيب في شعرها، في عمرها الذي يمتد إلى ما يزيد على ستين عاماً، وإن كانت ستبدو ساعتها أكبر من ذلك بنحو عشر سنين، بحسب وصف زوجها لها، وربما كان في ذلك إشارة إلى ذوبان جسدها في روح «الثلاثية» وأسرتها، فمهما بلغ جمال الجسد يظل دائماً يموت بالموت أو بالحياة، تماماً كما ماتت أجساد «غوان» وبنات ليل في حياة السيد «أحمد عبدالجواد».. «جليلة»، «زنوبة»، «أم مريم»، غيرهن...، أما الروح فلا يذبل عمرها ولا جمالها مهما شاخ الجسد حزناً على صباه الهارب.
منذ بداية «الثلاثية» يظل نجيب محفوظ يلح على وصف منزل السيد «أحمد عبدالجواد»، جدرانه العالية، سلالمه، روح من الوحشة تعشعش في البيت، ليكشف عمق انعزال «أمينة» داخل ما سماه: «القفص».

ومن هذا القفص كانت تطل على مشهد يومى لا يتغير، شارع «بين القصرين»، من المشربية ظلت عقوداً تنظر للمشهد ذاته وهى تنتظر سيدها كل ليلة، بعد أن ينهى معاركه وجهاده فى ملاعب اللهو والنساء، مشهد تتراءى فيه ليلاً بوابة «حمام السلطان» و«رابعة»، ومآذن تنتظر أذان الفجر، ثم يأتى الصباح ويندد المشهد عن عم «حسنين الحلاق»، الحاج «درويش بائع الفول»، «الفولى اللبان»، «بيومى الشربتلى»، و«أبوسريع صاحب المقهى»، مشهد لم يره سيدها إلا عندما اقترب من موته، حياته كانت معظمها خارج البيت، أما داخله ـ فقط ـ كان نومه وموته.

كانت «أمينة» بحسب وصف «الثلاثية» تعرف عن عالم الجن أكثر مما تعرف عن عالم الإنس، لسانها دائماً كان لا ينقطع عن ترديد آيات القرآن التى تطرد شر الشياطين، ظلت طوال عمرها مخلصة لتلك العادة.

أما أهم أحلامها، فكانت زيارة مقام سيدنا الحسين، الذى كان على بعد خطوات منها، لكن أوامر السيد «أحمد عبدالجواد» كانت أقوى من أوامر الأحلام.

وعندما استجابت مرة واحدة لحلمها، وزارت المقام، كلفها ذلك طردها ـ لأول وآخر مرة ـ من البيت. كان سيدها فى زيارة تتعلق بتجارته إلى بورسعيد، فزين لها «ياسين» و«فهمى» تحقيق حلمها، وذهبت إلى ساحة سيد الشهداء فصدمتها سيارة ـ وليس سوارس كما جاء فى ثلاثية حسن الإمام ـ فكسرت ترقوتها، ولم تستطع

الكذب على سيدها حين عاد، فصبر عليها ثلاثة أسابيع، وحين شفيت ـ كم كان رحيماً! ـ طردها إلى بيت والدتها، ثم أعادها بناءً على رغبة سيدة «آل شوكت»، التى كانت لها مكانة عنده، إذ جاءت لتخطب «عائشة» لابنها.

ومن مفارقات الحياة ـ المتكررة الجارحة أن «أمينة» استطاعت ـ فقط بعد انكسار قلبها بوفاة «فهمى» أن تزور الحسين كما تشاء، إذ رق قلب السيد عليها منذ بدء «قصر الشوق» ـ أو الشوك ـ فأصبحت تزور الأضرحة الطاهرة فى برنامج أسبوعى يبدأ بزيارة الأموات الذين بدأوا بـ «فهمى»، ولم يتوقف عددهم إلى أن انتهت الرواية،.. ما يدعو للتأمل هى تلك الآلية العبثية التى تسرى فى الأيام.. فكثير من الأمانى لا تتحقق إلا على جثث أفراحنا وأحبائنا.. لماذا لا يحقق الزمن أحلامنا إلا عندما يدرك أننا لم نعد قادرين على الفرح بتحققها؟!.

...

...

...

«أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلا.. من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهموم، أما الصمت فقد خلا له الجو فتاه ونشر جناحيه».. هكذا وصف «نجيب محفوظ» حال شارع «بين القصرين» عندما كانت تراه أمينة كل ليلة فى انتظار سيدها، رتابة كان وجود «أمينة» يجعل الروح تدب فيها فتمضى الأيام دون أن تشعر ليلة بالظلم.

مساءً: .. طرقات سيدها على الباب بعد مجلس الأنس، يتبعها نزولها السلم و«اللمبة» في يدها، تفتح له الباب: «مساء الخير يا أمينة».. كلمة يليها صعود إلى غرفة النوم، تعاونه في ارتداء ملابسه، ينام، مجلس الفطور بطقوسه التي يسبقها العجين، في حجرة الفرن، كانت أمينة تبدو كل صباح كأنها في رقصة صوفية، حالة من الوجد غير المفهوم تنتابها وهي تؤدي واجبها في تغذية العائلة بأنواع الفطائر والحساء، كخادمة كانت ترقص وكآم وجسد وروح كانت تطير فرحاً بإسعاد الآخرين، ولعل ذلك أكثر ما جعل روحها تتطهر - وإن كانت لم تلوث من الأصل - وربما كانت أقرب الأرواح - في «الثلاثية» - شبها في مسيرها بروحها، روح ابنها «فهمي» التي فاضت في ساحة الواجب أيضاً، أمام بنادق الإنجليز وكان رحيله انكساراً لم تقم بعده قائمة للفرح في حياة «أمينة» وعائلة السيد «أحمد عبدالجواد» كلها.

تظل أمينة طوال «الثلاثية» شخصية كأنها في عيني العابر لا تتطور إلا قبل النهاية بقليل، وكان نجيب محفوظ بارعاً في تكريس تلك الصورة، فهي بتكوينها الروحي والنفسي لم تكن في حاجة إلى أي تطور، فقد كانت تشبه «دفقة» الحب التي تولد في القلب، لا تصغر ولا تكبر، تظل جمرة مشتعلة مهما تكاثر عليها الرماد لا تموت، تشعل القلب والبدن بالبهجة والألم اللذين يشبهان طيفاً جميلاً شجياً كالذي أرخته «أمينة» على طول «الثلاثية» وعرضها.

برغم معلوماتها السياسية البسيطة، إلا أنها كانت تدرك أشياء كثيرة، تعرف أسماء مثل: «سعد زغلول»، والإنجليز مصطفى النحاس والشيعة، فجدها كان على درجة ما من الثقافة تسربت إليها، لكن القوة الأساسية ظلت فى نظرها هى السيد «أحمد عبدالجواد» وليس الإنجليز، فهى عندما رأت عساكر الإنجليز أسفل بيتها قالت: «سأوقظ سى السيد لأقول له».، وفى تعليق «محفوظى» قال صاحب الثلاثية: «كأن السيد يحل مشاكل حياتها ومشاكل بيتها مع الإنجليز».

وفى «السكرية» بعد أن شاخت «أمينة» لم يعجز عقلها عن تقبل كلمة «الشيوعيين» التى تحدث بها «كمال» أمامها وسألته: «شيوعيين يعنى شيعة سيدنا على؟».، أى لم يصدمها المصطلح ووجدت له تفسيراً من مخزونها الدينى البسيط، ولا تخفى دلالة الربط بين سيدنا على والشيعة ومحبوبها الآسر سيدنا الحسين، ورغم «هلس» ابن زوجها «ياسين» إلا أنه كان ثاقباً ـ دون قصد ـ عندما قال: «الحسين شهيد يحب الشهداء»، متندراً بحب زوجة أبيه لآل البيت.

وبرغم كل تلك الطاعة والاستشهاد، كانت «أمينة» امرأة ككل النساء والأمهات لا تخلو من مكر لطيف، وتتمتع بروح رقيقة من الطرافة، لكنها لم تصل أبداً حد السخرية.. فعندما تعجب «ياسين» ذات مرة لأن زوجته الأولى «زينب» تركته غاضبة إلى أهلها بعد أن ضبطته يتحرش بخادمة المنزل قال موجهاً حديثه لـ «أمينة»: «أين هى ستات الأمس؟».. ووصف نجيب محفوظ إجابتها على سؤال «ياسين» بقوله:

«لم تمنع أمينة نفسها من مداراة ابتسامة وهى تستمع إليه كواعظ وفى ذهنها صورته فوق السطوح أمس مع الجارية».

...

...

كان لـ «أمينة» استراحات ليست كثيرة فى حياتها، أكثرها بالقوة ونادراً ما كانت تستريح بالفعل، الاستراحات التى كانت تنالها بقوتها الروحية تمثلت فى الحلم، بداية من زيارة أضرحة آل البيت، ثم عبر «مونولوجاتها» المؤثرة مع نفسها، خاصة فى «بين القصرين»، أو فى شعورها الصوفى بالراحة حين يتحقق الوصل بمنتهى أمانيها وهو رضا «سى السيد» عنها وعن خدمتها له، أما استراحتها الفعلية فكانت فى نهايات صباها بأحاديثها مع بناتها، خاصة «خديجة» التى ظلت الأقرب إليها خاصة بأجزائها الأخيرة، وكذلك «كمال» عندما كان طفلاً وجدت بعض راحة فى ثرثرتها معه عبر إجاباتها وأسئلته التى كانت تتسم بالبراءة والسذاجة.

أما أجمل الاستراحات فى حياتها وطول الرواية بأجزائها الثلاثة، فكانت ما أسمته «مجلس القهوة»، طوال «بين القصرين» و«قصر الشوق» كان يعقد فى بهاء وبهجة فى الدور الثانى من المنزل، عندما خيم الحزن وانفراط العقد على العائلة من منتصف «قصر الشوق» وفى نهاية «السكرية» بدا كأن المجلس يترنح وهبط الدور الثانى بأكمله إلى الدور الأول، بل هبط الدور الثانى كله نزولاً على اعتلال صحة السيد «أحمد عبدالجواد».

«مجلس القهوة» كان نابضاً بالأعضاء فى مطلع حياة تلك العائلة وكانت سيدته «أمينة» تتوسطه عند مجمرة النار، ويتناول الجميع قهوته مع مغيب الشمس، أعضاؤه فى البداية كانوا: «ياسين»، «فهمى»، «كمال»، «عائشة»، «خديجة».. انفرطت أول حبة فى المجلس بوفاة «فهمى»، ومع غياب كل حبة جديدة سواءً بزواج خارج المنزل - أو بغيره - كان فنجان القهوة الذى تتناوله «أمينة» يعوضها ولو لدقائق عن افتقاد الغائب، وربما كان لذلك علاقة بأن يصبح فنجان قهوتها الواحد.. عشرة فناجين عندما لم يتبق معها فى نهاية «السكرية» والمجلس سوى «كمال»!.

لم تنشغل أمينة طوال حياتها سوى بغيرها، ولم تحمل أبداً رغبة أو أمنية سوى زيارتها لآل البيت، فيما عدا ذلك لم تعرف إلا المساعدة - والحلم - بتحقيق أمانى أبنائها، أول فرح حقيقى دخل قلبها كان بزواج ابنتها «عائشة»، وإن كان فرحها دائماً مشوباً بالتطير والقلق، قلق الخوف من المجهول والمسئولية عنه، فهى كانت تعتبر نفسها مسئولة حتى عن المجهول!، فكل ما فى داخل البيت من أحياء كان ملكاً حقيقياً لها وإن لم يقر سيدها بذلك، وهى لم تكن يوماً فى حاجة إلى إقراره، كان شعورها الداخلى بأعباء تلك المسئولية لا يفصح لها وقتاً لانتظار ثناء، وعلى حد وصف «نجيب محفوظ» لسير حياة آل «أحمد عبدالجواد»: «.. كان البيت من الناحية السياسية خاضعاً للسيد، ومن الناحية الإدارية الداخلية لأمينة».، ولعل ما جعل سياسة «أحمد عبدالجواد» تستمر هذا العمر

ليس صلاحيتها، وإنما لأنها وجدت إدارة تعرف دورها، ورضيت قانعة بأدائه، فبهذا - دائماً - تنجح وتفشل سياسات البيوت والأوطان.

ويبدو الدور المؤكد لأمينة ليس له علاقة بصوتها المستكين المطمئن، ولكن علاقته بصداه.. صداه الحقيقى الذى يحمل قوة التأثير فى أرواح وعقول أبنائها وبناتها، ظلوا دائماً أكثر تميزاً فى أداء وظائفهم «فهمى» شهيد، و«كمال» المثقف، وكذلك أحزانهم لم تكن كأحزان أى أحد، كانت كاسرة للقلب والروح، وهو ما بدا أكثر ما يكون عند «أمينة».. وكذلك «عائشة» و«خديجة»، وإن بقى «ياسين» - بمجونه المريض - خير ممثل لفشل سياسة أبيه.

فى طفولتها كانوا يرونها مبروكة، حيث نجت من وباء اجتاح البلد كلها، وفى حياتها كلها لم تعان سوى من مرضين «الخوف» و«الحزن»، حتى أكبر إصابة تعرضت لها - كسر فى الترقوة - كانت بسبب الخوف من سيدها عندما زارت سيدنا الحسين، لم تعرف الاكتئاب ولا الكسل، ربما لأن الإخلاص فى العمل علاج لا مثيل له لكل ألوان الأوجاع والحرمان.

ومن الغريب أن حزنها كان فى جانب منه نوعاً آخر «الخوف»، فحزنها الحقيقى بدأ بوفاة «فهمى»، ولعل ذلك فتح أمامها باب الخوف على بقية أبنائها، وامتد ذلك إلى مرضها الأخير الذى جاء بعد سنة من «الخوف» على إثر الغياب الأبدى لسيدها عن منزله.

...

...

لا أدرى لمَ يشدنى الحنين إلى «أمينة».. حنين يود لو يصل إلى لحظة البكاء، لكنه لا يستطيع. طوبى لـ «أمينة» بكت قدر ما استطاعت - وأرادت - أن تبكى، أما نحن فالـ «بروثيادين» - عقار مهدئ - حرق كل الدموع فى قلوبنا، فلم تعد تجرؤ على النزول من الجفون، وتكتفى بأن تخنقنا كل يوم ببخارها المتصاعد فى أرواحنا،.. دموعنا أين أنت يا دموعنا؟!.

لا أهتم كثيراً بأسباب الحنين، فبعض الأشياء يقتلها التفكير فى أسبابها، لكن للمفكر الفلسطينى «هشام شرابى» رأى آخر فى أسباب الحنين إلى الماضى، أشار إليه فى الجزء الأول من سيرته الذاتية الآسرة «الجمر والرماد».. بقوله:

- «إن نزعة العودة إلى الماضى، عند الفرد والجماعة، هى نزعة عميقة متأصلة فى النفس، تبرز فى حالات الخطر، وفى حالات الوحدة والقلق ويجب اتقاؤها».

.. كيف يمكننى أن أتقى تلك النزعة التى يحذر منها الدكتور شرابى، و«الوحدة» تتوحش، و«القلق» أصبح كوسادة من سكاكين نصحو وننام عليها؟!.. ، كيف لا أحنّ إلى «أمينة»، والأيام والأحلام والقلوب والأيدى والعيون والأفكار والنساء لم تعد بعدها.. «أمينة»؟!

الفصل التاسع 9



# شهيد «غنائى» لصلاح سالم!

«مهما حاولت
لا تستطيع أن تكون إلا نفسك.»

# إبراهيم الحجار

**كل** كريم مهانٌ بين قومه ، حكمة يزداد صدقها على مر العصور .. وفى أيام المطربين كانت أغانى «النار.. النار..» «فى السكة .. فى السكة» و«مين سرق العامود» هى التى تلقى الإقبال والقبلات .. وكان هذا الرجل وهو مطرب أصيل ـ لا يلقى إلا قبلات أبنائه فوق يده فى حارة ضيقة بإمبابة!

مأساة هذا الرجل أنه صدق تلك المقولة وعاش بها:

«مهما حاولت لا تستطيع أن تكون إلا نفسك» !

ونفسه كانت كرامة فى كرامة فى كبرياء، رغم مظهره الرقيق وكلماته غير الحادة التى تجعلك تستسهله ولا ترى صعوبة فى السيطرة عليه إلا أن تلك النعومة كانت تخفى تحتها جبلا صلبا استمر صامدا غير متنازل عن حدته لمدة ٧٩ عاما ذاق خلالها كل ألوان المعاناة والعذاب ومات وهو لا يملك إلا نفسه التى حافظ عليها نقية رقيقة فنانة فى زمن يضحى فيه الناس بكل شىء .. وأول الأشياء وأسهلها ..أنفسهم!

الأحلام تحتاج لأشياء كثيرة جداً غير الأحلام لتتحقق..

قصة هذا الرجل يحكيها لك وهو يدخن سجائر قليلة، ويرتدى ملابس مكوية بعناية، وعيناه يملؤهما الابتسام، ووجه مكسو بالرضى الحقيقى إنها قصة توجع القلب ..

قصة أناس يأكلهم الوطن باستمرار لأنهم لم يستطيعوا أن يدركوا المتغيرات القاتلة التى أصبح الوطن نفسه يتقنها .. كان هذا الرجل مقتنعا بأن الصدق قارب كاف ليعبر به الحياة ورغم أن القارب انكسر عند أول موجة إلا أنه ظل يسبح بجسده النحيل وحده فأصبح هذا الوجع « عزيز على القلب».. وما حدث لقلبى عندما سمعت منه قصة حياته!

من حسن حظى ووجع قلبى فى هذه الدنيا أننى قابلت عم إبراهيم الحجار فى حياتى .. قبل رحيله بأسابيع خمسة فى منزله الذى لم يبدله فى الحارة الفقيرة جدا، رغم أن ابنائه عرضوا عليه أن يبدله كما بدلوا هم .. قابلته فى ليلة صيف سبقت واحدة من احتفاله بعيد زواجه السابع والأربعين وقبل شهور من احتفاله بتمام عامه التاسع والسبعين، ولم أشعر على الإطلاق بأنه تجاوز الاعوام السبعة والأربعين ولا السنين التسعة والسبعين، كان كما هو طفلا عجوزا يعيش فى الحقيقة، حقيقية قالها فى آخر كلماته لنا بعد ثلاث ساعات من الكلام والغناء قال :

« أصل ربنا يحبك لما تحب كرامتك يا بابا»

«آه ياعم إبراهيم .. على الجروح التى فتحتها بتلك الكلمات البسيطة قلتها ومشيت وتركتنا نبحث ! قلتها وأنت لا تدرى وربما تدرى - أننا فى زمن لا نعرف فيه أين نحن على وجه الدقة ولا أين كرامتنا .. فكيف نحبها إذن .. فلم تعد هناك ملامح محددة لها .. اختفت كل معانيها، وما تراه أنت ياعم إبراهيم كرامة أصبح الناس يرونه غباء اجتماعيا!!

....

....

لم أكن أتوقع حين قصدت مقابلة الفنان الراحل إبراهيم الحجار أن يحدث لى هذا التغير الكبير فى بعض أفكارى، وحتى مزاجى الخاص .. تمنيت أن أقابل رجلا يحترمه الجميع وأنعم عليه الله بأبناء لهم احترامهم فى ساحة الغناء ولم نسمع عنه إلا كل تقدير .. وكانت دعوة كريمة من الفنان على الحجار إلى منزل والده، .. لم أسأل عم إبراهيم سوى سؤالين الأول عن مسيرة حياته والأخير عن سبب لجوء ثورة يوليو إلى تأسيس فرقة للتراث «أى العهد البائد» وأقصد فرقة الموسيقى العربية التى انضم إليها منذ تأسيسها وحتى إحالته للمعاش.. وتولى هو الحديث متدفقاً ولم يكن لدى اهتمام إلا بالنظر إلى هذا الرجل الذى كان بالنسبة لى كائنا هابطا من فضاء أبى وأمى وأناس انقرضوا وهم أحياء فى مواجهتنا نحن الذين انقرضنا قبل أن نولد.

طوال الساعات الثلاث التى امضيتها معه كان يبدو نموذجا للمصرى الصميم، الذى يبدو أنه لا يعنى أى شىء يقوله لكنه - بالفعل - يعنى كل شىء يقوله يبدو غير عارف بالسياسة إلا أن كل ما حكاه له علاقة بصميم سياسة هذا البلد من العشرينات وحتى الآن .. يبدو متسامحا إلا أنه ليس ضعيفا، ويعرف أن سر قوته هو فى استمراره حيا بصفائه ليموت اعداؤه بضغائنهم وإحساسهم بالذنب.

رغم أنه تحدث عن صلاح سالم إلا أنه لم يذكر أنه كان عضو مجلس قيادة الثورة، وكان يقول دائما عن الحرب العالمية الثانية «حرب ألمانيا» وتحدث كثيرا عن الستينات وما حدث فيها فنيا إلا أنه لم يذكر اسم جمال عبد الناصر، كان المسئولون الذين ذكرهم فقط محمد حسن الشجاعى ممثل العسكر وثورة يوليو فى الإذاعة وثروت عكاشة الذى أسس فرقة الموسيقى العربية من بين ما أسس من معاقل ثقافية فى وقته!

لحظة واحدة رأيت فيها الرجل خلال ساعات ثلاث عرض فيها عذاب حياته وفنه هى التى كان فيها حانقا و ساخطا، لحظة شعر بعدها بالذنب عندما سألته لماذا لم توافق على أن يلتحق إبنك «على» بمعهد الموسيقى العربية واقترحت عليه أن يدرس الفنون الجميلة.. قال «علشان ما يشوفش العذاب اللى شفته» .. بعدها وقبل أن يكمل الحرف الأخير من الجملة وكأنه ارتكب ذنبا كبيرا بدأ يستغفر الله

وقال «عذاب إيه .. عذاب إيه يا ابراهيم ـ الحمد لله الحمد لله على كل حال ـ أستغفر الله »!!

إبراهيم الحجار قيمة موسيقية مصرية كبيرة لا يمكن أن يتجاوزها العارفون بالتاريخ الحديث للموسيقى العربية، لكن لأنه ارتضى قانعا أن يقف فى الصفوف الخلفية ليدفع بالآخرين إلى الأضواء فهو يحتاج لبعض مجهود ليخرجه أحد من تلك الصفوف حتى يراه الناس .. ربما كان يحتاج هذا وإن كان يرفضه وهو بيننا إلا أننا نحن الذين نحتاجه الآن لنكتسب بعض الاحترام لانفسنا من خلال أن نرى بيننا بعض الناس المحترمين!

وُلِد إبراهيم الحجار ببنى سويف فى ٧ يناير ١٩٢٢ فى شارع جسر البحر القريب من ميدان مولد النبى، وكثيرا ما حضر ليالى هذا المولد، واشترى أحد أصدقائه حصانا من المولد هدية لعلى الحجار ما زال يذكرها ..

عاش فى بنى سويف حتى بلغ ٢٢ عاما بعدها انتقل للقاهرة للالتحاق بمعهد فؤاد الأول للموسيقى عام ١٩٤٤ وكان عميد المعهد مصطفى بك رضا عازف القانون البارع .

.. منذ بداية التحاقه بالمعهد لفت الأنظار إليه، وكانت المنحة الكبرى إعطاءه ٤٥ دقيقة ليغنى فيها على مسرح المعهد أمام وزير المعارف عند استلام شهادة الدبلوم، وطوال الوقت كان يحل ضيفا على أبناء عمته فى الجيزة، ولازمته طوال سنوات غربته الطويلة عن أهله فى

بنى سـويف عـادة البكاء فى لحظات المرض والألم .. لأنه عـاش فى ترف الأبوة والأمومة طوال ٢٢ عاما وكانت عائلته معروفة فى بنى سـويف لدرجـة أن الخطابات كـانت ترسل اليـه هكذا: «إبراهيم الحجار .. بنى سويف» ..لا رقم شارع أو عمارة أو حى!

ويتـذكـر أنه فى يوم ١٧ نوفـمبـر من سنة لا يتـذكرهـا امـتـحن فى الإذاعـة بشـارع علوى نمرة ٥ التى يحل مـحلهـا الآن البنك الأهلى، وفى لجنة إمتحـان الإذاعة كان مصطفى بك رضا وعبده قطر وأحمد بك فـهيم مدير عام وزارة المعارف والتعليم العـالى ومدحت عـاصم «وناس آخرين مـحـتـرمين قـوى» على حـد قـوله !، وأسـمـعـهم عـدة مقـامـات بدأت بتقـاسيم من «الصـبـا» وانتقل إلى «البـيـاتى» ثم إلى «السيكا» ويتذكر أن مصطفى بك رضا ومحمد فـهيم ساعداه كثيرا خـلال دراسته بالمعهد، إذ كان يمنحـه الأول جنيهـا شـهريا من جيبه إضـافة إلى ٣ جنيهات من المعهد.

....

....

كانت الأيام تلك بالنسبة له تشبه الأحـلام حتى جـاءت سنة ١٩٥٤ التى لا يتذكر علاقتها بالسياسة ولا بالعهد الثورى الذى دقت ساعته فى الإذاعة . .فقط يتذكر اسم محمد حسن الشجاعى الذى شعرت منه بعد كل تلك السنوات التى تكاد تقترب من الخمسين أنه مازال يرهبـه ويشـعـر بغصـة منه!، وعلى حـد قوله أنه جـاء عليه وقت كـان يخـاف أن يمر من شـارع الإذاعة بسبب الشجاعى!

والمعروف أن الشجاعى جاء لينفذ تعليمات ثورة يوليو داخل الإذاعة، وليجعل الأغانى كلها حيوية وشبابية بمفهوم هذا العصر بمعنى الانتقال من الوتريات وخلافه إلى النحاسيات - وغيرها -

ابراهيم الحجار طبعا كان شبابيا بمفهوم هذا العصر واشهر أغانيه «عزيز على القلب» غناها عام ١٩٤٨ كانت شبابية جدا إلا أن خلافا لم ينته على الإطلاق نشب بينه وبين الشجاعى وكان ذلك سببا حقيقيا فى أن إبراهيم ظل قيمة بعيدة عن الشهرة طوال العمر!!

بداية الخلاف.. - والبدايات غالبا لا تكون أساسا حقيقيا - كان اسم الحجار، إذا طلب الشجاعى من عم إبراهيم أن يغير اسم «الحجار» إلى أى اسم آخر! لكن الرجل رفض بإصرار، لأن الشجاعى طلب ذلك بإصرار .. وخلال حكاية عم إبراهيم لتلك القصة بعد كل تلك السنين عرفت كم كان هذا الرجل صلبا وعنيدا حتى وإن كلفه العناد حياته الفنية!

وبدأت المتاعب منذ ذلك الوقت إذ كان إبراهيم الحجار يستعد لتسجيل أول شريط له فى ١٩ يناير ١٩٤٥ وفرض عليه الشجاعى الملحنين عبد العظيم محمد وعزت الجاهلى، وكان الشجاعى يفرض فى تلك الأيام الملحنين الذين يريدهم بأعينهم على المطربين، تم تسجيل الشريط إلا أن الشجاعى طلب الإعادة لبعض التعديلات .. ورغم الإشادة الكبيرة بإبراهيم الحجار فى ذلك الوقت إلا أن ذلك لم

يشفع له وأعاد الحجار التسجيل فكتب الشجاعى فى تعليقه عليه: «يعاد لسوء الأداء»، وجن جنون إبراهيم حمودة ساعتها وكان على معرفة وثيقة بصوت إبراهيم الحجار .. ويتذكر الرجل بسنواته التسعة والسبعين أمامى تلك الدموع التى انهمرت عقب سماعه النتيجة وكأنها بالأمس ولمعت الدموع شفيفة خلف ابتسامة كلها تجاعيد وهو يحكى أنه كاد يجن وفكر فى أن يضرب الشجاعى بـ «دواية الحبر» فى وجهه إلا أنه اهتم بالتوضيح أن كل تلك كانت هواجس فى داخله منعته أخلاقه أن يتمادى حتى فى التفكير فيها .. «أنا قلت ربنا عايز كده.. الله .. ده رضاه أنا هأغير فى رضاه.. إذا كان هو راضى بكده.. الحمد لله».. هذا ما قاله إبراهيم الحجار بعد أن ضاع مستقبله فى هذا الوقت!!

كان محمد حسن الشجاعى - فى الأصل - كما يتذكر إبراهيم الحجار مفتشاً فى ملاجئ الصعيد وكان فى الوقت نفسه رئيساً للفرقة الموسيقية النحاسية فى القصر الملكى الأهم أنه كان لا تحلو له جلسات السمر إلا فى منزل الشجاعى، فالرجل لم يكن متزوجاً وليس لديه أولاد يحولون بين الضيوف والسمر!!

ويتذكر الحجار أن محمد ماضى والد المطربة حنان ماضى، وكان صديقاً له جاءه متهللا ومهللاً.. «الحق يا إبراهيم أفندى.. ألف مبروك.. الشجاعى مات» قالها له فى حديقة المعهد وكان جالساً يحتسى كوباً من الشاى وتكدر الحجار وقال له «يا أخى الله يرحمه»

وإن كان ابتسم لأنه فكر للحظة أنه سيعود للإذاعة!

....

....

لم أتعب كثيراً لأعرف كيف كان يعيش هذا الرجل ويصرف على أبنائه فى تلك الظروف المادية والنفسية الصعبة التى عاشها، لأننى أدركت كيف كان يفكر ويخطط أدركت أنه ببساطة لم يكن يخطط كثيراً وكان يثق فى الله وكرمه، وعلى خلفية ذلك انتقل بكل سماحة نفس من الصف الأول أمام الميكروفون كمغن كانت له أغنياته الشهيرة بالإذاعة خلال الاربعينيات إلى مكان بعيد عن الميكروفون كأحد أعضاء الكورال لعدد من المطربين فى الملاهى الليلية، ومن بينهم محمد قنديل الذى كان فى يوم ما أحد أعضاء الكورال خلف إبراهيم الحجار فى الإذاعة!! ومن أكثر الملاهى التى عمل فيها ملهى فتحية محمود «كازينو شهر زاد» الذى مازال موجوداً حتى الآن فى ميدان التوفيقية بشارع الألفى بك!

ولم تخل تلك الأيام من صولات وجولات لعم إبراهيم فى الصعيد، منها إقامته لعدة أشهر فى فيلا نجيب بك الهلالى الذى كان رئيساً للوزراء، حيث دعاه زوج ابنته (فريد بك حماد) للإقامة عنده بالصعيد للغناء.. ويتذكر أنه كان يبدع فى غناء «الجندول» لمحمد عبد الوهاب، فقد كان يحلم بحياة غنائية مثله هو والسنباطى، أى أن يلحن ويغنى لنفسه ، لكن الأحلام تحتاج لأشياء كثيرة جداً غير الأحلام لتتحقق.

تعاون إبراهيم خلال تلك الفترة كثيراً مع صديق أحمد أشهر متعهد حفلات لأم كلثوم وعبدالوهاب ويوسف وهبى، وسافر إلى الصعيد وبعض مدن الوجه البحرى ليغنى ولأكل العيش، ومن أطرف المواقف التى ذكرها، كان فى مدينة «الفشن» فى بنى سويف وامتلأ المسرح بالجمهور ومنهم مأمور المركز وفجأة شعر عم إبراهيم بالتهاب في اللوزتين ولم يستطع الغناء.. فئران البشر هم الفئران فى كل زمان! إذ نشروا شائعة أن المطرب الذى قدم للغناء كان فى جلسة سكر بالأمس ومازال مسطولا ولن يستطيع الغناء ولم يجد المتعهد مخرجاً من ذلك إلا أن يحمل عم إبراهيم إلى المسرح ليجعله يتكلم حتى ينفى تهمة السكر ويوضح أنه مريض.. وبمجرد أن شاهد إبراهيم الحجار الجمهور الذى كان ينتظره ويحب سماعه بدأ يدندن ليجرب إن كان سيقدر على الغناء وفتح الله عليه وغنى «الجندول» التى ظل ممتنا لهما كثيراً لأنها أنقذته من تهمة السكر!

....

....

ولأن الله لا ينسى عبيده، وأنه يجعل بعض الأفكار والثورات تكفر عن ذنوبها بنفسها فإن رجل الثورة «الشجاعى» الذى أبعد إبراهيم الحجار عن الإذاعة قد توارى، وظهر رجال آخرون فكروا، فى إقامة فرقة موسيقية لإحياء التراث الموسيقى العربى (فرقة الموسيقى

العربية).. وكان لإبراهيم الحجار صديق اسمه إبراهيم كامل رفعت كتب عدداً من الأغانى لعبدالحليم حافظ فى بداياته، وأخبره بأمر هذه الفرقة وقام أصدقاء إبراهيم بملء الاستمارة، له ومنهم «صديق فتحى شرف» الذى اشترى له طابع التمغة اللازم لاستيفاء الطلب.. «دائماً هناك تمغة إن لم تكن الشجاعى فلابد أن يكون الرفاعى أو مجرد طابع بوستة» المهم أن عم إبراهيم تحدد له امتحان يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ قبل النكسة بأيام ستة وللعلم وهو يحكى لي لم يتوقف إطلاقاً عند النكسة بأكثر من ذكر اسمها وإن كان ذلك يعكس عدم اهتمام سياسى إلا أنه قد يعكسه وفقا لوجهة نظر المصرى «اللماح» الذى لا يجد أى كلام ولا تنظير يصل إلى نتيجة أكبر من هذا الاسم «النكسة»!

امتحن الحجار أمام «عبدالحليم نويرة» مدير الفرقة ومحمدعبده صالح ود. محمود الحفنى ومدحت عاصم وعبده قطر وكان الامتحان فى دار الأوبرا القديمة التى احترقت وأصبح مكانها ـ الآن ـ «جراج السيارات»!! وكان جاهزاً للامتحان بـ «ملا الكاسات»» و«أصل الغرام» لكنهم قالوا له «لا.. لا شوف حاجة تانية»، واستغرب الرجل لأن الفرقة كانت أصلاً لإحياء التراث!!

وبالطبع تم قبول إبراهيم الحجار بالفرقة التى ظل أحد أهم أعضائها حتى إحالته للمعاش فى عام ١٩٨٢ طوال تلك السنوات لم (يتملحس) لعبدالحليم نويرة على حد قوله، رغم أنه كان هناك من

تمنى أن يحمل له الشنطة ويمسح له الجاكيت طمعاً فى صولو «غنائى»، إلا أن عم إبراهيم لم يكن يتطلع إلا للاستمرار بكرامته فتحمل تاريخاً طويلا من المعاناة رضى خلاله بالمقسوم لأجل أن يربى أبناءه ويوفر لهم الطعام ويتذكر أن المطرب الشهير عباس البليدى قابله فى إحدى المرات ولم يكن قد التقى به منذ سنوات وسأله: أنت فين ابراهيم من زمان؟ بتشتغل إيه دلوقت؟ فقال له عم إبراهيم: مساعد مطرب والحمد لله!! وكان ساعتها يعمل فى الكورال خلف عدد من المطربين!

ومن فرقة الموسيقى العربية وإحالته إلى المعاش انتقل للعمل فى أكاديمية الفنون وتعلم على يديه عشرات المطربين والمطربات، ليس مهماً ذكر أسمائهم، المهم أنه كان معلمهم وحتى آخر يوم وقبل وفاته بأيام كان قادراً على الغناء الجميل، وبنفسى استمعت إليه قبل وفاته بأسابيع يغنى أدوارا رائعة قد لا يحفظها فى مصر الآن سواه، وختمها بأجمل أغانيه «عزيز على القلب».

وإذا لم يكن الرجل العزيز على القلب قد نال حظه من الشهرة بالغناء إلا أنه نال حظه كاملاً من الشهرة بالإنسانية.. فهو نموذج للإنسان بكل معانيه من صدق ونقاء وطفولة إلى الحد الذى جعل ابنه الفنان على الحجار يداعبه ونحن معه.. «إيه يا بابا.. هو أنا اللى أبوك ولا إيه» من فرط ما طرحه الرجل علينا من طفولة وامتنان لأبنائه أحمد وعلى ورأفت.. وسمعته يقول بكل فخر وود ونظرة للزمن

العدو اللدود.. «ربنا أكرمنى بأولادى.. الناس معرفتنيش إلا بعلى الحجار، الحمد لله.. الحمد لله..» شعرت أن للرجل ثأراً مع الزمن تخلص من كثير منه بما منحه الله من موهبة لأبنائه وشهرة أكثر لأحدهم وهو «علي».. وتخلص مما تبقى بهذا الصفاء الذى تمتع به حتى آخر يوم فى حياته.

.....›

.....›

› ومن قبل أن أعرف بوفاة عم إبراهيم ومنذ تركت باب بيته المشحون بالشجن الصادق والذكريات.. من قبلها وأنا أفكر فى هذه النماذج التى يمثلها والتى ترحل وسترحل وتتركنا بلا براءة ولانقاء.. فكرت فى طلبه من المصور الذى التقط لنا بعض الصور«.. ممكن تجيب صورة علشان «علي» فيها»! ما كل تلك البراءة يا عم إبراهيم.. ممكن إيه بس!!

تعالى واحنا نعطى لك آلاف الصور! صور لا قيمة لها إلا لأنك وأمثالك تمنحون لها الروح والطعم ورائحة الورد.

إننى أفكر كثيراً فى كل تلك الأيام والأحلام..الصخب والعنف.. المرح والفرح.. الأفعال والأقوال.. المؤامرات والصراعات الصغيرة والنساء.. الموسيقى والحقيقة.. الأعمار والأطوار.. ما الذى نفعله بأنفسنا وبالآخرين؟ وما كل تلك المعاناة ليل نهار التى تنتهى بأن نقدم كل شىء على طبق من لحم ودم دفعنا فيهما كل العمر إلى ذلك

الذى يقف فى نهـاية كل طريق واسـمـه: «الموت»! كل طـريق لا يؤدى إلا إليه وكل نهاية لا تحمل اسما سواه!

بعد كل ما رأيت.. وكل الأحبة الذين ذهبوا إليه وسيذهبون لم أعد أملك إلا أن أحبـه وأنتظر لقـاءه بكل شـوق وابتـهـال بأن يكون هذا اليوم قريبا جميلاً لأشعر ولو لمرة واحدة بأننى دخلت بابا حقيقيا، حتى وإن كان يؤدى إلى عالم غير حقيقى.. فلم يعد سوى هذا الباب حقيقة لا تقبل الشك فى هذا الزمن المشكوك فيه وفى كل ما يحمله ويقدمه وينتجه!.. هنيئاً لك يا عم إبراهيم بحياتك التى أخذت منها حلاوتك وتركت لنا مرارتها، وبمماتك الذى أوجع قلوب كل من أحبوا الجمال والحقيقة... يا «عزيز على القلب» .

# الفصل العاشر 10



# من يعرف: روح الحياة أبكار السقّاف!

، لا تتوحش الأيام

إلا عندما يتشابه الناس.. ويصبحون قطيعا.. ، زحام

ولا أحد، كما كان يراهم المتنبى،

ما أصعب أن تكون مختلفا فى هذا الزمان..

وفى أى زمان!

وما أقسى أن تجرؤ على فعل ذلك؟..

آلاف المشانق والطلقات جاهزه لرأسك فى الحاضر والمستقبل إذا جرؤت!

فالاختلاف يؤرق القطيع، ويقض مضاجع خلدت إلى العفن والاستسهال .

وتلك الورقة التى بين أيدينا الآن خير شاهد على ذلك انها، ورقة مبللة بالدموع والآلام.. آلام الغربة وضياع الحقوق، وقتل الإبداع بالصمت والسكوت عنه. ما أصعب أن تكون جريمتك أنك بحت.. بالمسكوت عنه!

إنها ورقة تشبه عرق الذهب وسط تلال التراب فى الجبال البعيدة.. ورقة لم أتصور أبدا- من فرط إدهاشها - لى - أنها حقيقية.. ولم أدرك حتى الآن كيف ضاعت كل تلك السنين من عمر الوطن والفكر والتاريخ.

كانت فاتنة
ولم يحتمل
«العقاد»
أكثر من
(دقائق)
حتى دعا
نفسه على
فنجان شاى
فى منزل
أبكار

ورقة أبكار السقاف (١٩١٣-١٩٨٩) تدين الكثيرين وتكتب المجد لعقل واحد فقط.. آثر أن يكون مختلفا وأن يفتح أمام القطيع آفاقا اوسع فكان جزاؤه الإهمال والاغتيال داخل أسوار الصمت!.

تلك السيدة تشبه أسطورة إغريقية مؤكدة.. حيث ظلت طوال سنوات عمرها مقتنعة بأشياء ربما يراها كثيرون مضحكة. اقتنعت بأن الكتابة كل شيء، وأن العقل جدار الروح والحياة والفكر يصلح لأن يكون مهنة فى بطاقتها الشخصية!.

قليلة هى الكتابات ـ التى عثرت عليها بصعوبة ـ عنها.. الا أنها تكفى وزيادة.. من بينها مثلا برقية من العقاد الذى بعث إليها يقول «الأستاذة أبكار السقاف ٢٩ ش حسن صبرى الدور السابع الزمالك: هداياك من ثمرات الفكر والروض تحيى الربيع وتجدد الميلاد.. العقاد».

وذلك ردا على كتبها التى أهدته إياها فى عيد ميلاده.. والاسماء كثيرة تلك التى عرفتها وكتبت أبكار عنها خلال الأربعينيات والخمسينيات والستينيات.

ثم الأهم من كل ذلك تلك الكتب العشرة التى أبدعتها بكل عمق وتجديد وفى مقدمتها سفر ضخم صدر فى نهاية الخمسينيات فى ١٧٤٥ صفحة من القطع الكبير بعنوان :«نحو آفاق أوسع» وتناول قصة الدين عبر التاريخ، وعبر جميع الحضارات الإنسانية الكبرى وأحدث انقلابا فى عقل كل من قرأه ، وكتب عنه أحمد الصاوى

محمد فى يومياته بالأخبار يقول: «إن هذه الكاتبة العظيمة التى قرأت ألف كتاب وكتاب لتضع كتابها «نحو أفاق أوسع» جديرة هى نفسها بدرس حياتها، حقا إن شخصية ابكار السقاف جديرة بالبحث والتأمل جدارة مؤلفها الضخم».

وليس هذا هو الكتاب الوحيد وإن كان الأهم فهناك كتب أخرى لاتكتفى بالاستدلال عليها من عناوينها لأن تحت العنوان تحليلات عميقة وابتكارات جديدة لم يسبقها اليها أحد وهى:

« محمد.. النبى»، «إسرائيل و الأرض الموعودة»- أهدته للعقاد وأصدرته عام ١٩٧٣- وقدمت فيه أفكارا جريئة وجديدة حول قصة إسرائيل قديما وفى العديد من الكتابات «ودحضت كل الآراء القائلة بوعدها بفلسطين وأرض الميعاد. «النبى موسى».. وكانت أول من قدم أفكارا فى تلك الدائرة الخطرة وقبل كل الكتابات الحديثة المنتشرة الآن حول تلك النقطة دون الإشارة إلى أبكار التى انتهت من مؤلفها هذا فى أواسط الستينيات، من خلال حصولها كأول سيدة على منحة تفرغ لإنجاز هذا الكتاب.

-«السهروردى».

-«الحلاَّج»

-«همسة فى أذن اسرائيل»- كتبته بالإنجليزية

-«الليل والقلم» ـ وسبقت به الكثيرين فى كتابة الشعر المنثور إن لم تكن بهذا العمل أول من من كتبته-!

كنت أود ان أنقل لكم كل هذه الكتب كاملة لتروا بعيونكم تلك الأفكار المتجاوزة زمنها وجنسها كامرأة جميلة، لايتوقع منها أحد كل هذا العمق، وكان ذلك مفاجئا للعقاد نفسه حيث كان يجلس يوما، أوائل الستينيات داخل «مكتبة الأنجلو».. وذهبت «أبكار» إلى هناك لتسأل عن بروفات كتابها العمدة..«نحو آفاق أوسع»، والتقاها «صبحي جريس» صاحب الدار الذى احتضن كتابها فى وقت رفضه فيه كثيرون من الناشرين نظرا لجرأته.. قابلها بترحاب شديد وقال لها «جئت فى وقتك.. تعالى» ودخلت معه إلى مكتبه وكان «العقاد» جالسا وسبق له مراجعة بروفات كتابتها وما أن قدمها له «صبحي جريس» حتى هب «العقاد» واقفا بقامته الطويلة وقال: أنت أبكار.. أنت اللى كتبت هذا الكتاب، «قالت... نعم» .. .فقال «لا..بس أنت جميلة قوى يا أبكار»!.

وبالفعل كانت فاتنة ولم يحتمل «العقاد» أكثر من (دقائق، حتى دعا نفسه على فنجان شاى فى منزل أبكار وشقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» التى تتذكر كل شيء رغم سنوات عمرها الـ (٨٣) قابلتها فى شتاء عام ٢٠٠٠ بالإسكندرية بعد أن عرفنى إليها الشاعر الصديق مهدى مصطفى ، حافظ تراث أبكار، وحكت كل شيء بحيوية أحسدها عليها فى شقتها الفسيحة التى تصعد إليها كأنك فى طريقك إلى السماء بعيدا عن ضيق الأرض وناسها .. ذهبت إليها خلف كلية التجارة بالشاطبى.. منزل يليق بذكرياتها دخلت

وخرجت ولم أتذكر أى شىء سوى أبكار السقاف التى احتلت لوحاتها وتماثيلها كل أركان الشقة.. شقة ستغادرها ضياء حالا لأنها مؤجرة وستعود صاحبتها من كندا، ولا تعيش ضياء إلا على ذكريات أبكار توأم روحها وأيامها.. أيام جميلة بدأتها معى بالحكايات منذ البداية.

والبداية فى حياة تلك العائلة ومفكرتها الكبيرة أبكار تشبه النهاية.. حياة تمتطى القلق وتدمن الترحال.. فأبوها كان أحد كبار السياسيين فى اليمن منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين.. ولا تحب «ضياء» الآن الحديث عن عائلة السقاف كثيرا، ربما لغصة فى ذاكرتها وحلقها الا إنها قالت إن أباها قدم إلى مصر من اليمن، والتقى بوالدتها ذات الأصل السورى/ التركى فى القاهرة، وتزوجا وكان دائم الترحال إلى اليمن ولا يمكث فى مصر سوى شهور قليلة.. تتذكر أن والدتها كانت تقول للخدم كلما هموا بفتح حقائب سفر الوالد لاتفتحوها كلها، تكفى الحقيبة الصغرى واتركوا الباقى لانه أكيد سيسافر خلال يومين!

كانت للوالد اهتمامات سياسية لا تعرفها ضياء بالضبط إلا أن الواضح أنه كان مشاركا فى خطط للحكم تشمل اليمن والحجاز، وقد يصل الأمر إلى «برقة» حيث وافق بترحاب على خطبة أبكار إلى أمير برقة الذى أصبح فيما بعد الملك إدريس السنوسي!

روح الحياة أبكار محمد سعيد السقاف ولدت فى ١٤ يناير ١٩١٣ وعاشت طفولة تليق بأميرة داخل فيلا كبيرة فى شارع كفر الزيات بمصر الجديدة.. ولها من الأشقاء: ضياء ومصطفى الذى كان سببا فى انتقال العائلة إلى الاسكندرية، حيث كان يدرس فى «فيكتوريا كوليج»، درس الاقتصاد وسافر إلى الخارج يكمل تعليمه وهو الآن اقتصادى كبير فى هونج كونج ويراسل ضياء من وقت لآخر.. وكانت الإقامة فى الاسكندرية بمنطقة تفتيش السيوف.. تتذكر «ضياء» أن الفيلا التى أقاموا فيها كانت تشبه بيتا صغيرا فى البرارى وفيه بدأت تتفتح عيون أبكار على الحياة والفكر والحب الذى لم تلق فيه حظا حسنا على الإطلاق طوال حياتها!

كانت تلك الفترة عند نهاية العشرينيات إلى أن جاء أحد الايام عام ١٩٢٧ وإذا بوالدها يخبر والدتها أن ضيفا مهما سيحضر للفيلا.. أعدوا كل شىء يليق باستقباله.. فاذا هو الملك «ادريس السنوسى»- وكان لايزال أميرا- وخرج بعد تناول العشاء من الفيلا وسط ترحيب شديد من والد «أبكار» الذى أخبرها أنه وافق على خطبتها من الامير !!

وكانت صاعقة للأم التى لم يدر بخلدها سوى أن ابنتها ستغيب عنها بالانتقال إلى ليبيا.. ومر عام واحد فقط فى نهايته كان الأمير ووالد أبكار يجلسان فى مكتبه وكل الاسرة تسمع صوتهما العالى دون أن يتبين أحد سبب الخلاف وخرج الأمير مكفهرا وسط

ابتسامات أبكار وضياء ووالدتهما فرحا بفسخ الخطوبة.. وقد كان!

ثم فى عام ١٩٣٥ عاد «مصطفى الخربوطلى» بشهادة الدكتوراه من باريس، وكانت تربطه صلة قرابة بأبكار التى كانت تحبه، وتزوجته وكانت غاية فى السعادة الا أنها لم تدم إلا لثلاثة شهور، وفى نهاية إحدى لياليها شعر «مصطفى» بمغص حاد وتم نقله للمستشفى، ومكث به يومين وتوفى بسبب انفجار الزائدة الدودية..

وصفت «ضياء» تلك الحادثة وصفا كلاسيكيا مؤثرا.. وأسمتها «ضربة القدر» وبالفعل كان قدر ابكار مع تلك الضربة مغايرا لانها كانت بداية اتجاهها للقراءة بعمق.

وكانت ابكار قد تخرجت فى مدرسة فرنسية عريقة هى «الساكر كور» "COLLEGE" SACRECOEUR، وكانت تتقن الفرنسية بالطبع، إلا أنها كانت مقتنعة دوما بأن الانجليزية هى أساس أى ثقافة حديثة، فبدأت فى تعلمها والقراءة بنهم باللغات الثلاث العربية والانجليزية والفرنسية، وكانت هى وأختها ضياء فريق عمل متكاملا كورشة قراءة، وتغيرت حياة أبكار تماما وبدأت عليها ملامح جدية منذ رفضت ثانى أيام وفاة مصطفى أن «يولول» أحد عليه!

كانت تقرأ فى كل شىء وبخاصة الطب والفلك، أما الأساس فكان دائما الفلسفة والكتب السماوية الثلاثة، وتعمقت فى دراسة التوراة ويوضح ذلك بجلاء الجزء الخاص بالدين عند العبريين من كتابها الخطير.. (نحو آفاق أوسع)..

وبالتوازى جاء اهتمامها بتاريخ مصر القديمة وتواريخ الصين والعراق القديمة أيضا وكانت تسير بمنهجية شديدة خلال تلك الفترة، حيث كونت أرضية حاشدة من الأفكار والثقافات .

ثم جاءت مرحلة تالية عند انتقالها للقاهرة من خلال علاقات مع الأثرى الكبير محرم كمال ووكيل الأزهر الشيخ محمود أبو العيون ثم العقاد.. الذين أمدوها بالحوار والمراجع والإعجاب حول الكثير من إنتاجها الفكرى الذى سيظهر فيما بعد.

ومازلت مع أبكار - عبر حديث شقيقتها- فى الاسكندرية فى تفتيش السيوف الذى اختفى بالطبع وبقيت عشوائيات كالسيوف مكانه الآن ليكون الاسم على مسمى كما هو حال كثير من الأفكار والأشخاص فى هذا الزمان. أما فى زمان أبكار فكان مكان التفتيش هادئا داخل تلك الفيلا التى يقطنها آل السقاف، ولم تعرف أبكار خلال تلك الفترة غير القراءة والكتابة، وكانت تهرع كل يوم نحو الورقة والقلم كأنها نسيت صلاة أو واجبا.. تعودت أن تكتب كل شيء ولم تكن تعرف شيئا عن النشر وفجأة جاءتها فكرة هذا الكتاب - كما تقول ضياء- كتاب «نحو آفاق أوسع»، إلا أن ضياء تقول ذلك الآن بعفوية وعلى قدر اتساع الذاكرة، لكن الواضح من خلال عشرات الكتب القديمة التى اطلعت عليها وتحمل خطوطا بقلم أبكار تحت فقرات معينة وهوامش واستطرادات داخل تلك الكتب التراثية العميقة منذ الاربعينيات.. من الواضح أن ذلك صنعها وصنع كتابتها تراكما وليس فجأة!.

لم أصـدق نفسى وأنا اطالع تلك الكتب القديمة الخـاصـة بـهـا، وإدراكها المبكر جدا لخطورة السياسة وعلاقتها بالدين وانفجار اسرائيل فى منطقتنا ، وأزعم أنهـا من أهـم أوائل الذين تنبـهـوا لخطورة اليهود بشكل عام . بالطبع لستم مجبرين على تصديقى.. الا إذا قرأتم كـتـبـهـا التى لا إذا لم أفـهـم لماذا تم ذبحـهـا بتلك القسوة التى يبدو أننا أصـحـاب حضـارة فى ممارستـهـا مع كل مـوهـوب ومـخـتلف.. واعـذرونى لتلك الاسـتطرادات التى تقـفـز على لسانى وهى ستتكرر لان كل سطور حياة أبكار تكشف عن مأساة حقيقية، لم تعان هى منها إلا بقدر أقل مما نعانيه وسنعانية نحن، إذا أبقينا على آلية وأد أفكار المختلفين أحياء وأمواتا!.

أعود إلى مسيرة حياتها وتحديدا عند نهاية أربعينيات القرن الماضى، بدأت أبكار فى وضع الخطوط الأساسية لكتابها الكبير «نحو آفاق أوسع»، وظلت تعيد ما كتبت وتكتب من جديد لمدة لم تقل عن عشر سنوات..، وفى نهايتها انتقلت وشقيقتها إلى القاهرة، وبدأت هناك حياة جديدة، وتزوجت عام ١٩٦٠ من مصطفى يسين - وهو تركى الأصل - لمدة ٣ سنوات توفى بعدها!! وأثناء تلك السنوات كانت مشغولة بطباعة كتابها الذى رفضه كثير من دور النشر نظرا لجرأة أفكاره حتى وافق على طباعته صاحب مكتبة الأنجلو صبحى جريس، وصدر جزءان فقط والجزء الثالث قيل إنه صودر الا أن

النسخة الموجودة فى أدراج ضياء الآن عليها خاتم يصرح بالنشر قالت إنهم حصلوا عليه من الرقابة التى كانت موجودة بمكتب ملحق بقصر عابدين.

الملاحظ أن أبكار كانت تهرب من الآفاق الضيقة دائما نحو آفاق أوسع، فهى بدأت تأليف الكتاب أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعدها جرت مياه كثيرة تحت جسر السياسة فى مصر، إلا أنها كانت دوما بعيدا عن أفق السياسة الضيق، ربما لحساسية وضعها كيمنية الأصل فضلا عن الأحداث التى لاحقت والدها حيث تم تحديد إقامته فى اليمن وانقطعت زياراته عن مصر منذ نهاية الأربعينيات وتم تأميم كل ممتلكات عائلتها- منها ٤٠٠ فدان من مزارع البن- وتغيرت أوضاعها المالية الا أنها ظلت دوما مثل خيط من الـ «ستيل» كما تصفها شقيقتها ضياء!

وإقامة أبكار فى القاهرة كانت فى فيلا تشبه فيلا السيوف بالاسكندرية، أقامت هى وشقيقتها عند ترعة المريوطية بالهرم، وكانت تلك المنطقة غاية فى الهدوء بالطبع قبل هجوم عصر الميكروباص.. وليس أجمل من كلمات أحمد الصاوى محمد التى تصف لنا أجواء تلك الفيلا وأبكار وحياتها هى وشقيقتها حيث كتب فى يومياته بالأخبار:

«فى صباحية جميلة مشرقة من أيام شتاء القاهرة البديع اتجهنا إلى شارع الهرم فى ذلك البيت الاحمر المكون من ثلاثة أدوار

والواقع على ناحية ترعة المريوطية الى يمين المتجه للأهرام.. وكان المطرب محمد عبد الوهاب يسكن فى يوم ما فى دوره الارضى.. وصعدنا بيتا بلا مصعد، ودخلنا إلى استوديو تشعر لأول وهلة فيه أنك فى بيت أحد أولئك الفنانين الذين عرفناهم فى شبابنا فى باريس، لكن بيت الهرم كان لحسن الطالع يجمع بين الفن والفكر ولم تكن الآنستان- يقصد أبكار وضياء- من عوانس الحملة الفرنسية ولا أدرى لماذا كان هذا ظنى اللهم الا عما أصابنى أيام الشباب فى باريس، فقد حدث أن كنت أسير مع صديقى الدكتور صالح بكتاش المحامى فى حى مونبارناس فرأينا لافتة (غرفة مفروشة) على عمارة وجيهة، فصعدنا وإذا بباب الشقة يفتح لنا عن أثاث تكفى لمحة منه لتذهل العقل من أناقته، وانشرحت صدورنا لسكنى هذا البيت لكن التى فتحت لنا الباب كانت سيدة كبيرة فى السن، يمكن بلا مبالغة أن تكون بين الخامسة والسبعين والثمانين من العمر فاذا بها تبتسم بعد أن ناديناها..«مدام» وبادرت إلى تصحيح كلمتنا فهى «مدموازيل» تم قالت لنا فى رقة:

- انتظرا حتى أنادى ماما!!

وما أن استدارت حتى جرينا إلى الشارع (و عشرة مايجيبوا رجلينا).. أما فى شارع الهرم فقد خرجت علينا صبيتان فى ربق العمر تتضوع منهما الأنوثة والحشمة والرقة ودماثة الترحيب... كانت أبكار وهى أكبر قليلا من أختها هى الأديبة الفيلسوفة وكانت

بجمالها تذهل العقل لانه جمال شائق رائق عجيب، فهى طويلة القامة، نحيفة، ممشوقة القد، ناصعة البشرة إلى حد مدهش، شفاف.، لكن هذا كله يتحول ويتركز ليكون إطارا رائعا لعينين نجلاوين أكبر مما كنا نعهد وأشد عمقا وفيهما ما لاأدرى وصفه إلا بأنه تعبير عن حزن كظيم..»

وينقل الصاوى فقرة كاملة من مقدمة كتابها «نحو آفاق اوسع» ننقلها نحن أيضا وتقول فيها: «إن هذا الكتاب مجهود فرد ومجهود الفرد أبدا إلى الكمال فى حاجة ما بلغ الكمال فى الكون شىء، فكل شىء نحو الكمال يهدف فى كون نفسه نحو الكمال هادف.. مثلنا فى الحياة كمثل سائر نحو أفق يظنه النهاية وقط لن ينتهى إلى النهاية، فليست هناك نهاية تبلغ، فإن هو إلا أفق، وإن هى إلا آفاق تطوى فتنتشر بطيها أفاق وأبدا منها فى اتساع تتسع الآفاق .. من صور الكمال «المعرفة» صورة نحوها هادفا اتجه الإنسان منذ أن أشرق على صفحة الوجود له وجود حفر اتجاهه نحوها، على رمال الزمن، خطى امتدت إلى خطوات وخطوات، إلاما قد ظنه الهدف سار فأدرك، ولكنه ليدرك إنه لم يدرك ما قد ابتغى له إدراكا فما أشرف على الأفق إلا واستشرق آفاقا أبدا فى اتساع تتسع من الأرجاء.

وتقول فى تمهيدها للكتاب ... «إن الوجود بيداء! .. بيداء وعليها الحياة تمر مر الظلال! ظواهر تتعاقب - صور تمحى - مظاهر تظهر لتختفى ولا شىء إلا اللاشيئية يعير - لا شىء إلا وفى تلاش

يتلاشى – لاشيء له حقيقة في الوجود في هذا البيداء التي يحدها مأمن ومستقبل وكل سارب كالسراب، والسراب .. وهم ! ومن ثم فالوجود وجود تصوري والكون كون وهمي سرابي .. أي شيء من ثم في هذا الوجود التصوري والكون الوهمي والسرابي .. الحقيقة؟!.

الجواب إن الشيء الحقيقي الوحيد في هذا الكون هو .. النفس .. النفس التي أدركت أن الوجود تصوري والكون وهمي .. إن النفس قبس من «نفس»، قبس من نفس كبرى هو ما نحن هي ما عنه يبحث العقل ويسميها الإله».

أما عندما تتحدث هي عن نفسها ومشاريعها فتكون أكثر بساطة كما في تلك الإجابة عن أسئلة في حوار معها نشرته «آخر ساعة» في يوليو ١٩٦٢ بمناسبة حصولها على منحة التفرغ كسيدة واحدة مع ثلاثة رجال فقط من بين ٢٠٠ شخص تقدموا للمنحة ونص بعض فقرات الحوار كالتالي:

<< ما هي أهدافك من تأليف كتاب موسى، هل لك أن تحدديها باختصار؟.

قالت : سأعرض لتاريخ موسى تحت ضوء العلم الحديث، وسيكون الكتاب من ثلاث مراحل، الأولى العهد السابق لموسى، مصر القديمة التربة التي ظهر فيها موسى وستتناول المرحلة الثانية أعمال موسى من خلال المصادر التاريخية والأسفار الخمسة

المنسوبة إليه والأثر الذى تركه والمشكلات السياسية التى نبعت فيما بعد التى يعانيها - حتى الآن ..

طبعا كانت أبكار تتحدث سنة ١٩٦٢ ومازال كلامها صالحا بالطبع ولسنوات لا يعلمها إلا الله» .. شرقنا وهى مشكلة إسرائيل . والمرحلة النهائية : تحليل فكرة الأرض الموعودة وكيف تطورت مثل تلك الفكرة .

‹ وقلت لأبكار : حياتك العاطفية كيف تمضى خلال فترة التأليف؟.

- قالت الحياة العاطفية تصبح مشكلة لو لم يتكلم العقل فيها، فإذا تحكم أصبحت الحياة سيمفونية جميلة».

وخرجت كتابات أبكار من بين يديها إلا أنها لم تر النور، خاصة كتاب «موسى»، ولعل الخطوط العريضة لأفكارها من الكلمات القصيرة التى نقلناها تضع أول قنديل فى هذا النفق المظلم الذى ألقيناها فيه .. إنها تتحدث عن اليهود وإسرائيل، والنفس كأصل لكل الكون والأشياء وأنها - أى النفس - قبس من الله - فهل كان لابد أن تختفى كل كتاباتها لأنها جميلة .. ولأنها اختارت توقيتا خاطئا على اعتبار أن الحديث الآن عن الإسرائيليات والدين أصبح اختراعا .. هل كان مطلوبا أن تموت بالصمت عنها لتتسع دائرة الضوء والشهرة لأسماء أخرى رجالا ثم نساء؟؟.

ما يحيرنى أن كثيرين شهدوا لها بالعمق وفى مقدمتهم العقاد

الذى لازمته لفترة طويلة، وكان دائم الزيارة لها مع شقيقتها وشاهدت صورا له معها تدل على عمق العلاقة فضلا عن الإهداءات المتبادلة فوق الكتب بينهما ... وليس العقاد وحده بل هناك قائمة طويلة من الأسماء التى كان تسعى إليها وتجلس محاورة ومعجبة ومتأكدة من أهمية ما تملكه من فكر ... وعقل .. قائمة فيها عزيز أباظة، إبراهيم ناجى، وتيمور، صلاح عبد الصبور، أنيس منصور، محفوظ الأنصارى ... استغرب لماذا نسوها .. وكيف؟ أما الأهم فهو غيابها المدهش حتى عند من استفادوا منها فى كتاباتهم.

وخلال جولتى بين أوراقها التى تشبه حضورها رقة وبهاء، شعرت بأننى على شفا كنز نادر .. وفيه الخطابات والثناء والكلمات التى يختلط فيها الوله بالإعجاب .. فقد كانت أبكار خليطا خاصا جدا من الجمال والوعى وقوة الإدارة، وهى ملامح من النادر أن تجتمع فى امرأة ومن النادر أن تصدق بأنها كلها جميعا - كل تلك الملامح - حقيقة وأصيلة فيها!.

وأستغربُ جدا لماذا لم تنل التقدير إلا بهذا الشكل السرى فقط فوق أوراق الخطابات التى حملتها بين يدى صفراء شامخة تشبه رفات العظماء داخل التوابيت، منها هذا الكتاب على ورق لونه «تركواز» مكتوب فى أعلاه إلى اليمين «المتحف المصرى - قصر النيل - مصر» .. فى ٣ / ٤ / ١٩٤٥ .. والخطاب من الأثرى الكبير محرم كمال وكان وقتها أمين المتحف المصرى وكتب لها مايلى.

سيدتى ..

«كنت بالأمس فى معرض القاهرة للفنون الجميلة بسراى الجمعية الزراعية فرأيت تمثالك الذى وقفت أمامه معجبا، وعند ذلك تذكرت خطك وأسئلتك التى كنت تسألينها دائما والتى خطت على التمثال، ما الإنسان وما الوجود وما الحياة، وعند ذلك عاد بى الفكر إلى الماضى فعولت إلى الكتابة إليك، وكل ما أرجوه هو أن أؤكد لك الأثر الذى تركته فى نفسى ذكرياتك الدائمة التى أثارها فىّ رؤية تمثالك البديع».

وكتب لها أيضا .. «آنستى العزيزة .. أشكرك شكرا جما على خطابك الممتع وأعتذر لك مرة أخرى عن تأخرى فى الرد وفى الواقع كانت خطاباتك الرقيقة المليئة بشتى الأفكار القيمة هى بمثابة الماء العذب الفياض يجده المسافر فى صحراء جدبة طوال السير بعد أن الهبه العطش وأتعب جسمه طوال السير والترحال .. ومن كان يظن أن باريس .. باريس الجميلة بكل ما فيها من فن وجمال وعاطفة تذهب بين يوم وليلة ضحية الاعتداء الأثيم، من كان يظن أن بلد الحرية والإخاء يصبح بلد الاستعباد والظلم، إذا كان هذا هو شعورى وأنا مصرى لا تربطنى بفرنسا وبباريس غير رابطة الدراسة والاستقرار فيها ردحا من الزمن فكم يكون اليما شعور الفرنسيين بالنسبة لوطنهم .. كم أحببت الألمان عندما أقمت ببلادهم ولكنهم لم يكونوا ألمان اليوم، لم يكن هتلر قد ظهر بعد ..

ولم تكن تلك النوبة الهيستيرية قد اعترت هذا الشعب المجيد بعد، كان الألمان قوما ظرفاء طيبى القلب فياضى العواطف ولكننى لم أكد أترك بلادهم حتى أمسك هتلر بالحكم ، وحتى انتابت هذا الشعب الوديع لوثة من الجنون..»

كان محرم كمال يتحدث لأبكار هنا فى خطابه النادر /الوثيقة عن الحرب العالمية الثانية.

أيضاً كانت صلتها كبيرة بالعديد من أساتذة التاريخ والتراث والمصريات، ليست صلة اجتماعية أو علاقات عامة فحسب ولكن بمطالعتى لخطاباتها وجدت أنها عبارة عن محاورات فى العلم أكثر منها خطابات مودة أو اجتماعيات، فكل الخطابات تدور حول محاضرات أو كتب طلبتها من الأساتذة الذين كانوا يكتبون لها فى شتى التخصصات وكلهم كانوا يثنون على دأبها وسعة اهتماماتها وبخاصة فى المصريات «التى احتشدت لها كخط سير فى كتاباتها التى ركزت على اليهود ودورهم فى مصر الفرعونية ..

«وبقى القول بأن عقلية أبكار كما اتضح من تكوينها ودراستها، كانت علمية فى الأصل وقد تأصل ذلك علاقاتها القوية بشقيقتها ضياء التى درست العلوم الفيزيقية بتوسع وعمق وكانت القارئة الأولى – ويبدو أنها الوحيدة لأبكار كانت كثيرا ما تجعلها تغير مما تكتب ولا تنص أبكار عن كتاباتها إلا بعد أن تقتنع ضياء .. وكانت تكتب بمنهجة سابقة – بالفعل – لعصرها وما كان متاحا فيه من

أفكار وساعدها فى ذلك اطلاعها المتعمق على الثقافة الغربية التى لم تنقلها كما فعل كثيرون اشتهروا تحت راية التنوير، لكنها جعلت تلك الثقافة الغربية ومنهجيتها قضبانا تحمى انتقال ثقافتها العربية التى بدأت من مكتبة والدها التراثية .. ولعل تلك المنهجية العلمية العميقة هى ما جعلت الاهتمام ينصرف عنها، وربما كان خطأها الوحيد أنها لم تكن «شعاراتية»، ولم تقترب من درجة الشهادة أو ادعائها، ورغم ما قيل عن مصادرة كتابها إلا إنها لم تدخل فى قائمة ضحايا الاضطهاد الفكرى والذين اتهموا بالتكفير، ولم تستطع أن تستغل ذلك وتنتشر وتباع كتبها فى السوق السوداء..

شىء ما غامض لم أستطع التوصل إليه حتى الآن جعل تلك السيدة الجميلة بأفكارها وقوامها المشوق عن أيامنا وأفكارنا وتاريخنا وهى تملك بجدارة ودون إدعاء أن تكون أحد الأعمدة الأساسية للتنوير والتفكير الحقيقى فى مصر.

ورغم ما قصته على شقيقتها من اتهام البعض لها بأنها كافرة، إلا أن ذلك لم ينتشر وإنما كان نقاشا روتينيا بين بعض الضيوف الأزهريين الذين كانوا يحاورونها فى بيتها وتستقبلهم بترحاب والواضح - من كتابها - جدا أنه أقرب إلى الإيمان وأبعد عن الجهل ومتجاوز لحدود كثيرة يفضل الناس ألا يتجاوزونها لأنها أبعد من طاقتهم، ولعل علاقتها الوثيقة جدا بالشيخ محمد أبو العيون الذى كان وكيل الأزهر فى فترة ما، وكان عالما شهيرا لعل تلك

العلاقة تكشف عن مدى نصاعتها الدينية، وذلك ثابتا بكتاباتها قبل تلك الخطابات الذى عثرت عليها لدى شقيقتها وكان الشيخ أبو العيون دائما يرسلها إليها، وكان يكتب إليها دائما ... «بنيتى العزيزة» لها فى أحد الخطابات يقول لها :( فوالله لا أنساك أبدا .. وأنت سلواى وأحبك حب بناتي تماما وأود أن أراك قريبا وأدعوا لك بالرفاهية والراحة واستقرار النفس وأهنئك بشهر الصوم .. أعاده الله عليك وعلى الشقيقة وعلى الوالدة بالهناء .. محمود أبو العيون ٣ / ٨ / ١٩٤٧).

وفى خطاب آخر كان المظروف صغيرا مكتوب عليه «الحكومة المصرية» «مكتب السكرتير العام للجامع الأزهر» .. الإسكندرية تفتيش السيوف .. حضرة الأديبة الفاضلة المحترمة روح الحياة أبكار السقاف .. وقال فى خطاب آخر ( بنيتى العزيزة .. لك فى عنقى عهد لا أنساه أبدا فمنذ رأيتك يا بنيتى رأيت فيك المثل الأعلى للفتاة الواثقة بنفسها وبرسالتها فى الحياة وبوظيفتها فى الجيل، ورأيت فيك معنى الجمال الروحى الذى ينشده الفلاسفة وعلماء النفس وشعرت بعاطفتك الجارفة التى ربطتنا سويا وجعلتنا روحا واحدة ونفسا واحدة وشعورا واحدا. قبل أن أراك يا بنيتى كنت أتخيلك فى صورة غامضة لأن كتابك إلى وردك على مقالى «يا ضيعة الأخلاق فى عهد الحرية» منذ أربع عشرة سنة، كان ردا قاسيا وكان حادا فى الدفاع عن المرأة المغامرة وكنت أتخيلك فى

صورة المتمردة على رسالة المرأة فى الحياة والعاملة على هدم الفوارق الفطرية بين الجنسين، ولكننى حين رأيتك وحادثتك وسمعت منك .. ولا تزال ألفاظك الحلوة ترن فى أذنى - إن المرأة امرأة والرجل رجل وأنت تنشدين الحياة الكاملة للجنسين فى حدودها التى فطرتهما عليها الفطرة الإلهية لهذه المعانى. أحببتك وأكبرتك فى نفسى واتخذت منك ابنة لى هى بالبنوة الحقيقة أشبه .. ولعل تلك الكلمات التى كتبها الشيخ الأزهرى المعروف لا تحتاج إلى تفسير بل فقط إلى حساب التواريخ حيث كان هذا الخطاب مرسلا فى ١٩ / ١٠ / ١٩٤٨ .. ويتحدث فيه عن ردها عليه قبل ١٤ عاما وهو الرد الذى توقف عنده الشيخ بالتحليل واعتبره قاسيا أى أن أبكار كانت وقتها فى الحادية والعشرين - فقط -من عمرها ..

وفى خطاب آخر يقدم الشيخ أبو العيون معنى دقيقا.. لأبكار حين يقول لها .. «بنيتى العزيزة .. لقد تأثرت بتهنئتك بالعيد الأكبر وكل كلمة تكتبينها إلى يا بنيتى أحس فيها بروح ذات حساسية وذواقة وشعور غريب ليست فى بنات جنسك اللائى صادفتهن فى حياتى - وهن كثيرات مثقفات - أشعر حين أقرأ لك كتاباتك أن نفسك فى كبرياء وسمو وفى الوقت ذاته أشعر بأنها ضعيفة وحزينة وبائسة وأنها فى شكاة دائمة وألم مكبوت، .. ، مسكينة أنت يا روح الحياة أنت يا بنيتى غريبة عنا، غربة عن جيلك الحاضر، إن قلبك

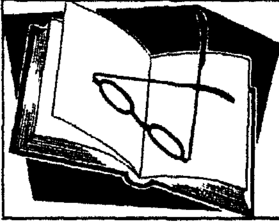
نابض يحيا فى الحياة المثالية ولكنك مرتدية رداء المرأة العادية فلا يعرفك كثير ممن يعرفونك أو يتسامرون معك.

كان ذلك وصفا لأبكار عام ١٩٤٦ ولعله أجمل ما قيل عنها فالغربة قدر العابرين الذين يقولون كلمتهم ويمشون سريعا حتى وإن بقوا فى الحياة لفترة طويلة، كنت طوال الوقت وأنا أستمع لشقيقتها المهووسة بها أحاول أن أبنى بعضا من الغرف والوسائد والمكاتب التى كانت تجلس إليها أبكار لأتخيل كيف قضت كل تلك السنوات الطويلة بدون ألم أو لهاث وراء أمل نشر وانتشار أفكارها، واستغرب كيف تحملت ذلك وأمامى اليوم من يحمل أوراقا وأفكارا هى كفقاقيع الصابون لكنه ينثرها علينا صباح مساء فى الراديو والتليفزيون والبوتاجاز ويشعر بالظلم الفادح إذا لم يطبع له كتاب ويصبح حديث المدينة إذا هاجم أحد أفكاره وقد ينال مرتبة الشهادة وهو فى الأصل بعيدا عن الفكر بعدى عن قيادة مركبات الفضاء ..

أما هذا السلام الداخلى الذى كانت تتمتع به هذه الفارسة الأميرة فهو أعجب ما سأظل أبحث عنه وإن كنت قد قاومت دموعا فى داخلى وضياء شقيقتها تصف ألمها النفسى بعد هذا الموت الذى حكموا به على كتابها الذى كانت تتصوره سيغير وجه الوطن ولكنها كانت تحمل صدقها داخل صدرها، ولم ألحظ فى كل اللوحات الكثيرة جدا التى رسمتها لها شقيقتها أو حتى الصور الأكثر .. لحظة انكسار واحدة فى عينها .. لاحظت فقط أن قسوة الناس هى

التى تجعل الزمن يتوحش ويقتلنا فيما بعد .. ولا تتوحش الأيام إلا عندما يتشابه الناس .. ويصبحون قطيعا .. «زحام ولا أحد» كما كان يراهم المتنبى ويبدو أن الزمن - والناس - لا يخافون إلا ممن يفكر وهم لا يفكرون، ويصمت وهم يصيحون، ويرضى وهم ساخطون، ويعيش فى سلام مع نفسه وهم فى حرب مع الجميع يعيشون.

لقد واجهت أبكار قدرا يليق بها .. يليق بوتر مشدود مصنوع من الـ «ستيل» لا ينكسر ولا يلين، ولكننا نحن الذين لم نلق القدر اللائق بنا معها .. إنها لا تحتاجنا وحتى عندما كانت تعيش معنا فهى مستغنية بنفسها .. فبمن نستغنى نحن .. جاءت غريبة من الحجاز وعاشت غريبة وسط أصدقائها . وقدمت شهادة بتلك الكتابات الرائعة لميلاد وطن جديد هو «الغربة»، فهو الأجمل عندما تكون كل المساحات وأحاديث الوطن متشابهه . لقد عاشت فى دفء أفكارها ولم يقتلها برد الغربة .. سلام عليها .. وفى كل زمان .. طوبى للغرباء!.



# الفهرس